تأملات
راعي أغنام

في مزمور ٢٣

معهد تدريب القادة بالشرق الأوسط
تعليم بأسلوب مميز

الناشر : **معهد تدريب القادة بالشرق الأوسط**

إسم الكتاب: **تأملات راعي أغنام في مزمور**

إسم المؤلف: Rocky Fleming

رقم الإيداع : ٢٠٠٧/١٩٧٧١

تأملات راعي أغنام

في مزمور ٢٣

هل أنتمي إليه حقاً؟

هل فعلاً أدرك حقه عليّ؟

هل أخضع لسلطانه، وأقر بملكيتي له؟

هل أجد الحرية والإشباع التام في هذا الترتيب؟

هل أستكشف هدفاً وأشعر بالشبع الكامل لأنني تحت توجيهه؟

هل أنعم بالراحة والاسترخاء وأشعر بإحساس معين من مغامرة مثيرة، في الانتماء إليه؟

فلو كان الأمر كذلك، إذاً فإنني أستطيع بكل شكر وبصوت الحمد أن أهتف بفخر، تماماً كما فعل داود **"الرب راعيَّ"** وتهتز مشاعري لأنني أنتمي إليه، لأنه هكذا سأنتعش وأزدهر، رغم ما قد تأتي به الحياة.

مُقتبس من تأملات راعي أغنام في مزمور ٢٣

المحتويـــــات

المقدمة ٧

الفصل الأول

"اَلرَّبُّ رَاعِيَّ" ١١

الفصل الثاني

"فَلاَ يُعْوِزُنِي شَيْءٌ" ٢٥

الفصل الثالث

"فِي مَرَاعٍ خُضْرٍ يُرْبِضُنِي" ٣٩

الفصل الرابع

"إِلَى مِيَاهِ الرَّاحَةِ يُورِدُنِي" ٥٧

الفصل الخامس

"يَرُدُّ نَفْسِي" ٦٩

الفصل السادس

"يَهْدِينِي إِلَى سُبُلِ الْبِرِّ مِنْ أَجْلِ اسْمِهِ" ٨٥

الفصل السابع
"إِذَا سِرْتُ فِي وَادِي..." ١٠١
الفصل الثامن
"عَصَاكَ وَعُكَّازُكَ هُمَا يُعَزِّيَانِنِي" ١١٥
الفصل التاسع
"تُرَتِّبُ قُدَّامِي مَائِدَةً..." ١٣١
الفصل العاشر
"مَسَحْتَ بِالدُّهْنِ رَأْسِي..." ١٤٥
الفصل الحادي عشر
"إِنَّمَا خَيْرٌ وَرَحْمَةٌ يَتْبَعَانِنِي..." ١٦٣
الفصل الثاني عشر
"وَأَسْكُنُ فِي بَيْتِ الرَّبِّ إِلَى مَدَى الأَيَّامِ" ١٧٧

المقـــدمة

بكل ما تتضمنه مقاييس العظمة، فإن الإنجيل عبارة عن مجموعة من الكتب، دونها بإرشاد روح الله، أشخاص متوسطو الحال، وقد تمت صياغة العديد من مصطلحاته وتعاليمه بأسلوب عامي يناسب الموضوعات التي يتناولها، وخصوصاً فيما يختص بالأماكن الخلوية والظواهر الطبيعية. وكانت الجموع التي وُجِّهَتْ إليها هذه الكتابات، هم بالدرجة الأولى من البسطاء والبدو الرحل المتآلفين مع الحياة في وسط الطبيعة وفي الأماكن الريفية المحيطة بهم.

أما اليوم فلم يعد الأمر هكذا، فإن معظم الذين يقرأون أو يدرسون الكتاب المقدس ينتمون إلى بيئة حضرية طورها الإنسان. وسكان المدن على وجه الخصوص ليست لهم صلة بتلك الأمور الخاصة بحظائر الماشية والطيور، والمحاصيل، والأراضي الزراعية والحياة البرية، لذا فهم يجهلون الكثير من الأمور التي تتضمنها كلمة الله نتيجة عدم إلمامهم بمثل هذه الموضوعات.

ومع ذلك فإن الوحي الإلهي مرتبط أساساً بتلك الأمور المتعلقة بعالم الطبيعة، والرب يسوع نفسه كان يستخدم باستمرار الظواهر الطبيعية ليفسر من خلالها الحقائق المذهلة التي تتضمنها أمثاله. إنه

أسلوب متجانس، يتسم بكل من الصياغة العلمية والروحانية بما لا يدع مجالاً للجدل.

وكل هذا يصبح مفهوماً ذا معنى عندما ندرك أن الله هو الخالق وأصل كل الأمور الطبيعية، وتلك الخارقة للطبيعة (الروحية). والقوانين الأساسية والمبادئ والنظم التي تسري على الأمور الطبيعية تسري أيضاً على الأمور الخارقة للطبيعة، ومن ثم يتعين علينا لكي ندرك أمراً منها، أن نستوعب المماثل له على الجانب الآخر.

ومن خلال هذا المنهج المتميز بالتفسير الروحاني، أصبح إدراكي بحقائق الكتاب المقدس ذات معنى، وهذا يوضح السبب الذي من أجله ترسخت لديّ الحقائق التي تداولتها مع أناس كثيرين بوضوح كامل.

ومن هنا فإنني أشعر بالفخر لتقديم هذه المجموعة من "استنارة الراعي" من خلال هذا المزمور المعروف جيداً لنا والذي نحبه كثيراً- مزمور ٢٣.

وقد تم إعداد هذا الكتاب على فترات، بناءً على خلفية متميزة، منحتني إدراكاً أعمق لما كان في مخيلة داود عندما كتب هذا النشيد الرائع. لقد ترعرعت ونشأت في شرق أفريقيا، وعشت بين رعاة بسطاء تتشابه عاداتهم تقريباً بعادات مواطني الشرق الأوسط، لذلك فإنني أشعر بالألفة الحميمة مع مشاعر وصورة حياة الراعي

في هذه البلاد. وحينما كنت شاباً، كان مصدر رزقي على مدى ثمانية أعوام من امتلاك وتربية الماشية. لذلك فحينما أكتب هذا الكتاب، فإنني أسترجع خبراتي في تربية الخراف، وعندما أصبحت فيما بعد راعياً لإحدى الكنائس، عايشت حقائق هذا المزمور في رعاية "قطيعي" كل يوم أحد وعلى مدار الاسبوع وعلى مدى شهور عديدة.

وقد جاءت فصول هذا الكتاب من واقع خبراتي المتنوعة، وأعتقد أنها المرة الأولى التي يقوم فيها راعي أغنام بالكتابة بهذا الأسلوب عن مزمور الراعي من واقع خبرته العملية.

وقد تطرأ صعوبة عند تدوين كتاب مبني على حقيقة مألوفة في الكتاب المقدس، فقد يُخيب الكاتب أمل القارىء أو قد ينطلق به بعيداً عن بعض معتقداته أو انطباعاته السابقة عن المزمور، لأن مزمور ٢٣، شأنه في ذلك شأن الكثير من التعاليم الروحية، يتضمن معانٍ وجدانية مجازية دون أن يكون لها أساس في الواقع العملي. لذلك فإنني ألتمس من القارئ، أن يطالع الصفحات التالية بذهن مفتوح وبحياد حتى تفيض في كيانه حقائق حية وومضات مثيرة عن عناية الله واهتمامه به، ولكي يصل إلى إدراك جديد راسخ للجهد المتواصل الذي يوليه مخلصنا لخرافه، ومن ثم سيزداد إعجاباً وحباً متنامياً لراعيه العظيم.

الفصل الأول

"اَلرَّبُّ رَاعِيَّ"

الفصل الأول

"الرَّبُّ راعيَّ"

الرب! لكن من هو الرب؟ ما هي شخصيته؟ هل لديه ما يزكّيه بما يكفي ليكون راعياً لي يدبر شئوني ويمتلكني؟

إذا كان الأمر كذلك، فكيف أضع نفسي تحت سلطانه؟ وبأي أسلوب أصبح موضع اهتمامه وعنايته الباذلة؟

هذه أسئلة تنفذ إلى أعماق النفس وتستحق أن تُفحص بأمانة. فمن الأمور الشائعة في الحياة المسيحية، أننا نميل للحديث عن عموميات غامضة.

إن داود مؤلف هذا النشيد، كان راعياً ابن راع، وأصبح فيما بعد "الملك الراعي" لشعب الرب في القديم وقد أعلن بوضوح **"اَلرَّبُّ رَاعِيَّ"** فلمن كان يشير؟

لقد كان يشير إلى يهوه، الرب الإله. وقد أكدّ الرب يسوع هذه الحقيقة عندما حلَّ بيننا فأعلن بوضوح **"أَنَا هُوَ الرَّاعِي الصَّالِحُ"**.

ولكن من كان المسيح هذا؟

غالباً ما تتسم نظرتنا له بالضآلة وضيق الأفق والمحدودية، وهذا يولِّد لدينا الشعور بعدم الرغبة في السماح له بأن يتسلط علينا أو يوجهنا، بل ولا أن يمتلك حياتنا.

لقد كان المسئول مسئولية مباشرة عن خلق جميع الأشياء سواء الطبيعية أو الفائقة للطبيعة (انظر كولوسي ١: ١٥ – ٢٠).

فلو ركّزنا تفكيرنا على شخص المسيح وعلى قوته وأعماله، فإننا سنبتهج مثل داود ونعلن بافتخار **"اَلرَّبُّ رَاعِيَّ"**.

وقبل أن نفعل ذلك، يجب أن تكون في أذهاننا صورة واضحة عن الدور الواضح في التاريخ الذي تحقق بواسطة الله الآب، الله الإبن، والله الروح القدس.

فالله الآب هو المبدع، وهو مصدر كل الموجودات، فقد تكوَّن الكل أولاً في عقله، والله الإبن مخلصنا هو الله الفنان مهندس الكون والخالق لكل الموجودات.

وقد وهب الوجود لكل ما تشكّل أصلاً في عقل الآب.

والله الروح القدس هو الإله الفاعل الذي يحضر هذه الحقائق إلى ذهني، وأيضاً إلى فهمي الروحي، بحيث تصبح حقيقة بالنسبة لي وأيضاً مرتبطة بي كشخص.

إن تلك العلاقة الرائعة بين الله والإنسان، والتي تكرر ذكرها في الكتاب المقدس، هي نفسها العلاقة بين أب وأبنائه وبين راع وخرافه. وهذه المفاهيم تصورت أولاً في عقل الله الآب، وأصبحتً متاحة بصورة عملية من خلال عمل المسيح، ثم صارت واقعاً في حياتي بفعل عطية الروح القدس.

وعندما يردد أي شخص هذه العبارة البسيطة رغم سموها **"اَلرَّبُّ رَاعِيَّ"**، فإن هذا يعني، أن هناك علاقة حيّة نشأت على الفور بين النفس البشرية وخالقها.

إنها تربط كتلة الطين بالوجود الإلهي، فقد أصبح الإنسان المائت موضوع اهتمام العناية الإلهية.

إن مجرد هذا الفكر يجب أن ينير ذهني، ويلهب إدراكي، ويمنحني كشخص شعوراً بالكرامة. فعندما أفكر أن الله في المسيح يهتم بي اهتماماً شديداً بصفة شخصية، فإن هذا الأمر يجعلني على الفور أشعر بوجود هدف عظيم، ومعنى فريد لإقامتي القصيرة هنا على هذه الأرض.

وكلما ازداد إدراكي عن عظمة وجلال المسيح، كلما كانت علاقتي به أكثر حيوية. وفي هذا المزمور لا يتكلم داود

عن نفسه كراعٍ. رغم أنه كان كذلك. بل كخروف من القطيع. فهو يعبِّر عن شعور ممتليء بالافتخار والإخلاص والإعجاب، وكان يهتف بزهو "انظر من هو راعيَّ، من الذي يتملكني ويدير شئوني"، إنه الرب الإله!

لقد أدرك داود من واقع خبرته التي استقاها، أن أموراً كثيرة في حياة الخروف تتوقف على نوعية الشخص الذي يمتلكه. فهناك أشخاص يتسمون بالكياسة والطيبة والذكاء، وهم غير أنانيين في بذلهم من أجل خرافهم، ومن ثمّ ينتعش القطيع ويزدهر تحت قيادتهم، وهناك أشخاص آخرون قد تتصارع الخراف وتتضور جوعاً وتُعاني بشدة تحت قيادتهم. وإذا كان الرب راعيّ، فإنه يجب أن أعرف شيئاً عن شخصيته وأدرك إمكانياته. ولكي أفهم هذا، غالباً ما أخرج للسير منفرداً ليلاً وأتطلع إلى النجوم مذكراً نفسي بقدرته وجلاله، وعندما يرنو بصري نحو السماء أتذكر أنه يوجد على الأقل ٢٥٠ مليون × ٢٥٠ مليون من الأجرام السماوية، وكلها أكبر من الشمس التي تعد أصغر النجوم المتناثرة في الفضاء الفسيح للكون الذي صنعته يداه، وأتذكر أيضا أن كوكب الأرض الذي أقطن فيه لأعوام قليلة، إنما هو بقعة ضئيلة في الفضاء، ولو أمكننا أن نحمل أكبر تلسكوب لدينا إلى أقرب نجم ونعاود النظر منه إلى الأرض، فلن نتمكن من رؤيتها رغم الإمكانيات الهائلة لهذا الجهاز.

وهذا الأمر يدعو إلى الإتضاع، فتتلاشى "الأنا" من الإنسان، ويضع الأمور في نصابها. إنه يجعلني أرى نفسي كأصغر المخلوقات في هذا الكون المتسع. ومع هذا، تظل هناك حقيقة مذهلة، وهي أن المسيح خالق هذا الكون العظيم، يتنازل ويقول عن نفسه إنه راعيَّ، ويعتبرني خروفاً له، وأصبح موضوع لطفه وعنايته الفائقة. ترى من يكون أفضل منه يستطيع أن يعتني بي؟.

وباتباع نفس النهج، فإنني أنحني إلى أسفل، وأقبض حفنة من التراب وأضعها تحت الميكروسكوب الإلكتروني فينتابني الذهول وأنا أكتشف أنها تعج بمليارات المليارات من الكائنات الحية الدقيقة وبعضها معقد جداً في تركيبتها حتى أن بعضاً من وظائفها لم يتم إدراكها بعد.

نعم إنه المسيح ابن الله الذي أحضر كل هذا إلى حيز الوجود. فالكل، من أكبر جرم سماوي إلى أدق ميكروب، يعمل بانسجام وتوافق طبقاً لقوانين محدّدة وبطريقة تفوق إدراك العقل المحدود.

ومن هذا المنطلق فإنه يجب أن أقر، بأن ملكيته لي ككائن بشري، هو حق منطقي له، لأنه ببساطة هو الذي أتى بي إلى الوجود وليس هناك أفضل منه يستطيع أن يفهمني ويعتني بي.

إنني انتمي له لسبب بسيط، وهو أنه قد قصد باختياره، أن يخلقني لأكون موضوع محبته الخاصة.

ومن الواضح جداً أن معظم الناس يرفضون الإقرار بهذه الحقيقة. فمحاولاتهم المتعمدة لإنكار وجود مثل هذه العلاقة بين الإنسان وخالقه، تبرهن على استيائهم من أن يمتلكهم أحد، أو أن يتسلط عليهم لمجرد أنه أحضرهم إلى الوجود.

لقد كان هذا الأمر من "المخاطر المحسوبة" إن صح هذا التعبير، التي اعتبرها الله عندما خلق الإنسان منذ البدء.

ولكنه في طول أناته، اتخذ الخطوة الثانية لاستعادة هذه العلاقة، والتي كثيراً ما يتم رفضها من قِبَل الأشخاص الذين يديرون ظهورهم له.

ومرة أخرى برهن الرب في الجلجثة على الرغبة الشديدة التي في قلبه، أن يأتي بالإنسان ليكون تحت عناية محبته. لقد وضع على نفسه جزاء ضلالهم وأعلن بوضوح أننا **"كُلُّنَا كَغَنَمٍ ضَلَلْنَا. مِلْنَا كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى طَرِيقِهِ وَالرَّبُّ وَضَعَ عَلَيْهِ إِثْمَ جَمِيعِنَا"** (إشعياء ٥٣ : ٦) ومن ثَمّ فإنني بكامل إرادتي وبشعور حقيقي، أقر مرة

أخرى أنني أنتمي إليه، لأنه بكل بساطة قد اشتراني بثمن لا يُقدّر، حينما وضع حياته لأجلي وسفك دمه. لذلك كان مستحقاً أن يقول **"أَنَا هُوَ الرَّاعِي الصَّالِحُ وَالرَّاعِي الصَّالِحُ يَبْذِلُ نَفْسَهُ عَنِ الْخِرَافِ."** وينبغي أن ندرك تماماً أننا قد اشترينَا بثمن، وأننا حقاً لا نملك ذواتنا، ومن منطلق هذا الحق، فإنه يطالبنا بحساب عن حياتنا.

إنني أحاول استعادة ذكرياتي عن خبراتي الأولى مع الخراف، وكنت أتساءل عن أهمية دفع ثمن خرافٍ. لقد صارت هذه الخراف ملكاً لي بموجب النقود التي دفعتها ثمناً لها، والتي اكتسبتها بالدم والعرق خلال سنوات عصيبة مرت بي. وعندما قمت بشراء أول قطيع صغير، قررت في ذلك اليوم أن أبذل كل جهدي في سبيل تربيته. ومنذ ذلك الوقت لم يفارق هذا اليوم ذاكرتي.

ولهذا السبب فقد شعرت شعوراً خاصاً، بأن هذه النعاج جزء مني كما أنني أيضا جزء منها، لقد كانت هناك علاقة حميمة تربطنا معاً، وإن كانت غير ظاهرة للشخص العادي، وهذا الأمر جعل للثلاثين نعجة التي اشتريتها مكانة خاصة وسامية لديّ.

وقد أدركت منذ البداية أن هذه لم تكن سوى مرحلة أولى في علاقة مستمرة، فأنا ملتزم كمالك، بأن أضحي بحياتي من أجلهم حتى ينموا ويزدهروا. إن الخراف لا تعتني بنفسها كما يظن البعض، فهي تتطلب عناية واهتماماً أكثر من بقية الحيوانات.

ولم يكن من قبيل الصدفة أن يدعونا الله خرافاً، فالسلوك بين البشر والخراف يتشابه في أوجه كثيرة كما سنرى في الفصول القادمة. فنحن نتماثل معها في غرائزنا ومخاوفنا، وعنادنا، وغبائنا وعاداتنا السيئة.

ورغم كل هذه الخصائص، فإن المسيح اختارنا واشترانا ودعانا بأسمائنا، وجعلنا خاصته مبتهجاً برعايته لنا. وهذا هو السبب الثالث الذي يوجب علينا التزاماً بأن ندرك سبب تملكه لنا. فهو في الواقع يبذل نفسه على الدوام من أجلنا، إنه الشفيع الدائم لنا، وهو المرشد بروحه المعزي باستمرار، وهو الذي يعمل فينا ومن خلالنا لكي يضمن لنا الفائدة من واقع رعايته لنا.

إن مزمور ٢٣ يمكن تسميته في الواقع **"بأنشودة داود في مدح العناية الإلهية"**، فهو يكلمنا عن الأسلوب الذي يتبعه الراعي الصالح، وأنه لا يدخر جهداً في سبيل رفاهية خرافه، فلا عجب أن المرنم يعلن بافتخار انتماءه للراعي الصالح، ولم لا يفتخر؟

مازلت أتذكر مزرعة كبيرة لتربية الماشية في الحي الذي كنت أقطنه، وكان يستأجرها أو يديرها راع، ما كان ينبغي أن يُسمح له مطلقاً بأن يرعى خرافاً. فقد كان قَطيعه هزيلاً وضعيفاً يعاني من الأمراض ويمتليء بالطفيليات. وكان قطيعه يأتي دائماً ويقف أمام السياج متأملاً عبر الأسلاك، المرعى الوافر الذي يتمتع به قطيعي. وكان لسان حال ذلك القطيع، وكأنه يقول لو أمكنه

النطق، ياليت هناك من يطلقنا ويحررنا من هذا المالك القاسي.

لقد انطبعت هذه الصورة في ذاكرتي ولا يمكن محوها على الإطلاق، إنها صورة الأشخاص المثيرين للشفقة، الذين لا يريدون الانتقال إلى الراعي الصالح الذي قاسى من الخطية عوضاً عنهم.

إنه لأمر محير، أن أناساً يرفضون أن يملك المسيح على حياتهم، لأنهم يخشون أنه عندما يقرون بملكيته عليهم، فإنهم سيقعون تحت سيطرة إله طاغية.

ومن الصعب إدراك أن هناك أنساناً يتردد في معرفة شخص المسيح، ومع ذلك يجب أن نعترف أن هناك تصوراتٍ وأفكاراً مزيفة عن شخصيته، ولكن إذا نظرنا إليه نظرة محايدة، سنجد أن حياته تعلن لنا عن شخصية تتسم بالكمال المطلق وبكم غير محدود من الحنان والشفقة.

لقد كان أعظم شخصية وأكثرها محبة للناس. ورغم أنه وُلد في بيئة متواضعة للغاية وكان عضواً في عائلة مكافحة ومتواضعة، إلا أنه كان يحمل في شخصه كل ما هو جدير بالسمو والثقة. ورغم عدم تمتعه بممتلكات أو بسلطة سياسية أو قوة عسكرية، فليس هناك شخص آخر غيره، كان له مثل هذا التأثير الهائل في تاريخ العالم، وله الفضل في أن يتمتع ملايين البشر طوال القرون الماضية واللاحقة بحياة تغمرها الأخلاق النبيلة وتتسم بالاحترام

وآداب السلوك.

وهو لم يكن رقيقاً ونبيلاً وحنونا فحسب، ولكنه كان أيضا صارماً وصلباً كالفولاذ وحازماً جداً مع المرائين.

كان عظيماً في سعة صدره وطول أناته في المغفرة لمن يسقط، وكان مرعباً للذين يتصفون بالازدواجية في الشخصية وبالمظاهر الزائفة.

لقد جاء ليعتق الناس من خطاياهم ومن أمراض الذات، ومن مخاوفهم، وقد أحبه الذين حررهم بإخلاص شديد.

إنه الشخص الذي أثبت أنه الراعي الصالح، والمتفهم والمهتم بشغف أن يقدم العناية الكافية في البحث وإنقاذ واستعادة الضالين.

لقد وضّح بكل جلاء، أن الشخص الذي يسلمه نفسه ليكون تحت قيادته وطوع إرادته، سيتمتع بعلاقة سامية من نوع جديد تربطه به، وسيتولد شعور خاص جداً من الانتماء لهذا الراعي. وستكون هناك سمة مميزة وخاصة لهذا الشخص بخلاف الآخرين.

في اليوم الذي اشتريت فيه الثلاثين نعجة، جلست مع جاري في المكان الذي كانت ترعى فيه أغنامي وأنا أتأمل قوتها، وأنها أصبحت ملكاً لي، والتفت إليّ جاري، وقدم لي سكيناً كبيراً قائلاً: "حسنا يا فيليب إنها ملك لك، ويجب أن تترك عليها

علامة تميز هذه الملكية."

وأدركت ما كان يقصده، فكل خروف تؤول ملكيته إلى أحد الأشخاص، لابد أن تُترك عليه علامة مميزة عبارة عن قَطْع مُعّين في أذنه بحيث يكون من السهل التعرف على صاحبه.

ولم تكن المهمة سهلة، أن أمسك نعجة وأضع أذنها على خشبة، ثم أغرز السكين الحاد تاركاً ثقباً فيها. وهكذا كان كل خروف يؤول إلى ملكيتي، يحمل في أذنه تلك العلامة.

وفي الكتاب المقدس توجد واقعة مماثلة لذلك. فإذا كان هناك عبد عبراني في بيت، كان يخدم لمدة سبع سنوات ثم يعُتق، ولكن إذا أراد البقاء في البيت لمحبته لسيده ولبيته، فلا بد من إتباع إجراء معين، وهو أن يأخذه سيده عند الباب ويضع شحمة أذنه على قائم الباب، ثم يشقها بمغرز، فيكون هذا العبد ملكاً لسيده إلى الأبد.

وهكذا فإن كل شخص يُخضع نفسه بالكامل للرب يسوع ليكون ملكاً له، فلا بد أن يحمل علامة سيده وهي الصليب، فعلامة الصليب هي التي يجب أن تميزنا معه دائماً.

إن كل شخص يُخضع نفسه بالكامل للرب يسوع ليكون ملكاً له، فلا بد أن يحمل علامة سيده وهي الصليب.

وقد أعلن المسيح بكل وضوح مؤكداً "كل من يريد أن يكون لي تلميذاً (تابعاً) فلينكر نفسه ويحمل صليبه كل يوم ويتبعني"

وهذا يحدث عندما يغير الشخص أوجه حياته المنساقة تبعاً لنزواته وشهواته، بأحداث مثمرة ومشبعة للنفس، من خلال توجيه الرب له.

ومن الأمور التي تدعو للأسى، أن هناك كثيراً من الناس لم يضعوا أنفسهم تحت سلطان الرب أو توجيهه، ومع ذلك يعلنون "الرب راعيّ"، وهم يظنون أنهم بمجرد اعترافهم به كراع لهم بطريقة ما، أنهم سينعمون بمزايا عنايته وإدارته لشئونهم دون أن يغيِّروا أساليب حياتهم الطائشة.

لن يستطيع أحد أن يجمع بين هذين المسلكين، فإما أن ننتمي له وإما لا. وقد حذرنا الرب يسوع من اليوم الذي يقول فيه كثيرون "يا رب إننا باسمك قمنا بعمل عجائب كثيرة "حينئذ سيصرح لهم بأنهم لم يكونوا على الإطلاق من خاصته.

وهذا الأمر يجعلنا نفتش داخل قلوبنا عنٍ دوافعنا ونُقيمٍّ علاقتنا بشخصه. هل أنتمي إليه حقاً؟ هل فعلاً أدرك حقه عليّ ؟ هل أستجيب لسلطانه وأقر بملكيتي له ؟

الفصل الثاني

"فَلاَ يُعْوِزُنِي شَيْءٌ"

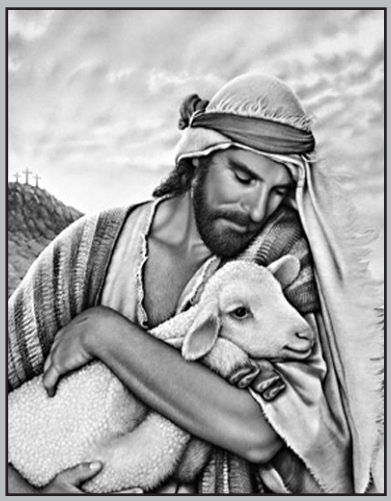

الفصل الثاني

"فَلاَ يُعْوِزُنِي شَيْءٌ"

ما هذا الافتخار والوضوح والإيجابية الذي تقدمه هذه العبارة!. فمن الواضح أن تلك المشاعر ينطق بها خروف يشعر بالرضا الكامل تجاه مالكه، ولديه اكتفاء كامل في حياته.

وحيث أن الرب راعيّ، فإنه لا يعوزني شيء. وكلمة "يعوزني" هنا تحمل معانٍ أبعد مما يمكن أن نتخيله للوهلة الأولى. إن المعنى الأساسي يدور بلاشك حول عدم الحاجة إلى شيء أو العوز، لكنه يعني بالأحرى الرعاية الصحيحة والتدبير المتميز.

ولكن المضمون الثاني لهذا اللفظ، هو فكرة أن الخروف موضوع تماماً تحت رعاية الراعي الصالح، ليس لأنه يبغي مصلحة ما أو لأنه يهدف إلى شيء.

وقد تكون هذه العبارة غريبة بالنسبة لرجل مثل داود، إذا فكرنا فقط في إحتياجات مادية أو جسدية. لقد كان من الواضح أن داود اختبر الحرمان العاطفي، وشدة العوز، والضيق، والألم النفسي بعد الإنهاك الذي أصابه نتيجة ملاحقة شاول له

والهجمات المتكررة، وبعد ما فعله ابنه أبشالوم.

من ثمَّ فمن غير المعقول أن نزعم بناء على ذلك أن ابن الله، الخروف الموضوع تحت عناية الراعي لن يختبر العوز والاحتياج.

ومن الضروري أن تكون لدينا رؤية متوازنة للحياة المسيحية. وحتى نفهم ذلك جيداً علينا أن ننظر إلى سِيَر رجال مثل إيليا ويوحنا المعمدان وحياة الرب نفسه، وأيضاً حياة رجال الإيمان المعاصرين، حتى ندرك أن كلاً منهم قد اختبر حرماناً شخصياً وواجه مقاومة عنيفة.

وعندما كان الراعي العظيم نفسه بيننا، نبّه تلاميذه قبل صعوده للمجد قائلاً **"في العالم سيكون لكم ضيق، لكن ثقوا أنا قد غلبت العالم."**

إن أحد المظاهر الخادعة الشائعة اليوم بين المسيحيين، هو الاعتقاد بأنه لو ازدهرت الأحوال المادية لشخص ما، لكان هذا برهاناً واضحاً على أن الله قد بارك حياته. وببساطة ليس هذا هو الواقع.

لكننا بالأحرى نقرأ على النقيض من ذلك في سفر الرؤيا ٣: ١٧ **"لأَنَّكَ تَقُولُ: إِنِّي أَنَا غَنِيٌّ وَقَدِ اسْتَغْنَيْتُ، وَلاَ حَاجَةَ لِي إِلَى شَيْءٍ، وَلَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ أَنْتَ الشَّقِيُّ وَالْبَائِسُ وَفَقِيرٌ وَأَعْمَى وَعُرْيَانٌ."**

وأيضا قال الرب يسوع للشاب الغني الذي أراد الحياة الأبدية **"فَنَظَرَ إِلَيْهِ يَسُوعُ وَأَحَبَّهُ وَقَالَ لَهُ: «يُعْوِزُكَ شَيْءٌ وَاحِدٌ. اذْهَبْ بِعْ كُلَّ مَا لَكَ وَأَعْطِ الْفُقَرَاءَ... وَتَعَالَ اتْبَعْنِي حَامِلاً الصَّلِيبَ»**.
(مرقس ١٠: ٢١)

ومن أجل هذا السبب، يجب أن ينظر المسيحي إلى رحلة الحياة كرحلة طويلة ومجهدة. يجب أن يدرك أنه كواحد من مختاري الله، قد يُطلب منه أن يختبر العوز إلى الثروة أو الأمور الشخصية، يجب أن يدرك أن غربته على الأرض هي فترة وجيزة قد يختبر خلالها الضيق ويشعر بالاحتياج. ورغم ذلك فإنه يستطيع أن يتباهى في وسط الضيقة قائلاً **"**فلن يعوزني شيء، لن تعوزني رعاية وتدبير سيدي الرب**"**

ولكي نستوعب المعنى الحقيقي لهذه العبارة البسيطة، فإنه من الضروري أن نفهم الفرق بين انتمائنا للسيد، وانتمائنا لآخر، انتمائنا للراعي الصالح أو انتمائنا للمحتال. لقد اجتاز الرب يسوع نفسه آلاماً مريعة لكي يوضح

إن أحد المظاهر الخادعة الشائعة اليوم بين المسيحيين، هو الاعتقاد بأنه لو ازدهرت الأحوال المادية لشخص ما، لكان هذا برهاناً واضحاً على أن الله قد بارك حياته. وببساطة ليس هذا هو الواقع.

لكل شخص لديه النية في إتباعه، أنه من المحال أن يخدم سيدين، إما أن يكون له أو يكون لآخر.

وإجمالاً فإن رفاهية أي قطيع متوقفة بالكامل على إدارة وتدبير مالكه.

لقد كان راعي الخراف المستأجر للمزرعة المجاورة لمزرعتي، مختلفاً تماماً عن كل الذين قابلتهم، فلم يكن يهتم بأحوال غنمه. وكانت أرضه مهملة. ولم يكن لديه وقت للاهتمام بقطيعه بل كان يتركه صيفاً وشتاء ليلتقط طعامه بنفسه، وكان قطيعه فريسة للكلاب والوحوش ولصوص المواشي.

وكانت هذه الحيوانات المسكينة تبحث طوال العام عن طعام في الحقول والمراعي الفقيرة. كان هناك نقص مستمر في التبن والعشب، ولم يكن هناك مأوى يحمي تلك الخراف من العواصف الثلجية.

ولم تكن هناك سوى مياه ملوثة موحلة يرتوون منها، وكانت الأغنام تعاني من نقص في الأملاح والمعادن اللازمة التي تعوضها عن المراعي الفقيرة، لقد كانت حالتها مثيرة للشفقة والرثاء.

وما زلت أتخيلها وهي تقف خلف السياج، تحملق بأسى في المراعي الغنية على الجانب الآخر.

وهكذا كان يبدو مالكها الأناني، في منتهى قسوة القلب، ولا

مشاعر له. ببساطة لم يكن يبالي بقطيعه. فماذا سيحدث لو احتاج قطيعه عشباً أخضر، ومياها جارية وأماناً ومأوى من العواصف؟ ماذا لو طلب أن يرتاح من الجراح والأمراض والطفيليات؟ لقد تجاهل احتياجاته ولم يكن يعيره أدنى اهتمام. لماذا يبالي، وهو لم يكن يعني في نظره سوى مجرد خراف لا تصلح لشيء سوى للذبح.

لم أكن أنظر مطلقاً إلى هذه الخراف دون أن يكون لديّ إدراك كامل بأن هذه كانت صورة أولئك السادة القدامى الحقيرين، أي الخطية والشيطان، في مرعاهم المهمل وهم يستهزئون بحالة أولئك الذين خضعوا لسلطانهم.

ولأنني كنت أنتقل بين رجال ونساء من جميع طبقات المجتمع، باعتباري راعياً مقيماً أو باحثاً، فقد أدركت شيئاً واحداً، أن من يصنع الفرق في مصير الناس وحياتهم هو المسئول أو المدير أو السيد.

لقد تعرفت على بعض الرجال الأكثر ثراءً في تلك القارة، وعلى بعض العلماء الرواد والمحترفين، ورغم مظهرهم الذي يوحي بالنجاح، وشخصيتهم المؤثرة وهيبتهم، فقد كانوا مساكين بالروح، ضعاف القلوب وغير سعداء في حياتهم، بل كانوا مكبلين بقيود حديدية في قبضة السيد القاسي الذي لا قلب له.

وعلى النقيض من ذلك، كان لديّ العديد من الأصدقاء الذين يبدو أنهم فقراء مادياً بالنسبة للآخرين، وقد اختبروا الحياة الصعبة والصراع لأجل البقاء على وجه الحياة. ولكن لأنهم ينتمون للرب يسوع، وقد تعرفوا عليه كربٍ وسيدٍ على حياتهم وكمالكٍ لهم ومدبرٍ لشئونهم فقد حظوا بسلام داخلي عميق وهادىء يثير دهشة وإعجاب من حولهم.

لقد كان من المبهج حقاً أن أزور تلك المنازل المتواضعة، حيث يتمتع الزوجان بغنى النفس والقلب وبالشبع الروحي. وهما يمتلآن بالثقة الكاملة والمبهجة وقد تغلّبا على جميع المآسي التي قد تحل بهما. وهما يدركان أنها تحت عناية الله. لقد سلّما نفسيهما لتدبير المسيح فوجدا فيه الكفاية والشبع اللذين هما ختمٍ أو سمة لمن سلم أموره بين يدي الله. وهذا ينطبق علينا وخصوصاً عندما يتقدم بنا العمر. ولكن التناقض غير المفهوم يكمن في الشعور السائد بين الناس بعدم الرضا رغم أنهم يتحدثون عن الأمان.

فرغم وفرة الثروة التي لا نظير لها، فإننا نفقد عنصر الأمان والثقة في أنفسنا، ونفتقر للقيم والمبادئ الروحية.

إن البشر بطبعهم دائماً ما يسعون لتحقيق الأمان بأنفسهم. فهم غير مرتاحين، ومضطربون، جشعون يسعون إلى اقتناء المزيد ولا يدركون مطلقاً حقيقة شبع النفس.

وعلى العكس من ذلك، فإن المؤمن الذي يتسم بالبساطة ولديه شخصية متواضعة يقف بافتخار مدركاً أنه خروف للراعي الحقيقي ويعلن: "الرب راعي، فلا يعوزني شيء" إنني مدرك تماماً بإدارته لشئون حياتي. لماذا؟ لأنه راعي الخراف الذي لا هم له سوى العناية الفائقة بقطيعه. فهو يمتلك المزرعة ويراقب بعين ثاقبة خرافه بسبب محبته لهم، ليس لأنه يريد شيئاً منهم، ولكن لمسرته الشخصية بهم، وهو يقوم بعمله طوال الأربع وعشرين ساعة ليزوِّدهم بكل ما يحتاجونه، وفضلاً على ذلك فهو غيور جداً لأجل اسمه لكونه "الراعي الصالح".

إنه المالك المسرور بقطيعه، وبالنسبة له، ليس هناك أعظم لديه من أن يرى خرافه راضية، يطعمها جيداً ويحقق لها الأمان والازدهار من خلال عنايته بها. وهذه هي مشغولية حياته، فهو يعطي كل ما لديه لأجلها، حتى أنه بذل حياته لأجل خرافه الخاصة. وهو سيتحمل إلى المنتهى كل الجهد والمشقة في سبيل تزويدها بأفضل مراع وأوفر غذاء للشتاء، وبالمياه النقية. ولن يدخر جهداً ليوفر لها مأوًى يقيها من العواصف ويحميها من اللصوص، ومن الأمراض التي قد تصيبها. ولا عجب أن يسوع قال: "أنا هو الراعي الصالح، والراعي الصالح يبذل نفسه من أجل الخراف "وأيضاً" أنا قد أتيت ليكون لهم حياة، وليكون لهم أفضل."

ومنذ الصباح الباكر وحتى ساعة متأخرة من الليل، يظل

إن المؤمن الذي يتسم
بالبساطة ولديه شخصية
متواضعة يقف بافتخار مدركاً أنه
خروف للراعي الحقيقي ويعلن:
"الرب راعي، فلا يعوزني شيء"

هذا الراعي ساهراً وعاملاً على رفاهية قطيعه. إن الراعي النشيط يستيقظ مبكراً، وأول شيء يفعله، هو أن يخرج ويتطلع إلى قطيعه. إنه الاتصال اليومي بينه وبين خرافه، وبعين فاحصة متمرسة وحنونة، يقوم بمعاينة خرافه ليطمأن على أحوالها الصحية وعلى قدرتها على الوقوف، ويمكنه في لحظة أن يعرف إذا كان قد تم التحرش بها أثناء الليل، أو إذا كانت مريضة، أو إذا كان بعضها يحتاج إلى عناية خاصة. ويقوم بهذا الأمر عدة مرات خلال اليوم ليتيقن من حال قطيعه وأن كل شيء يسير حسناً.

وحتى أثناء الليل لا يسهو عن حاجة خرافه، فهو ينام كما لو كان بعين مغمضة والأخرى مستيقظة وأذناه مفتوحتان، وهو على أهبة الاستعداد لمجابهة أقل شعور بالاضطراب يلم بقطيعه وينتفض مدافعاً عنه.

هذه صورة رائعة للعناية المحيطة بهؤلاء الذين جعلوا حياتهم تحت تصرف الرب يسوع. فهو يعلم كل ما في حياتهم من الصباح إلى المساء.

"مبارك الرب الذي يغمرنا كل يوم بإحسانه فهو الله مخلصنا"

إنه حافظك لا ينعس ولا ينام.

ورغم وجود هذا السيد، فإن بعض المؤمنين لا يرضون بتدبيره لشؤون حياتهم، فهم غير راضين، ولديهم شعور بأن العشب الموجود بالمراعي تذبل نضارته.

هؤلاء هم المؤمنون السالكون بالجسد، الذين يمكن أن ندعوهم "زاحفين أسفل السياج" أو هم "مؤمنون جسديون" يريدون الجمع بما هو أفضل سواء في العالم الحاضر أو في الدهر الآتي.

كانت لديّ نعجة مماثلة لتلك النوعية، وكانت تتصرف على هذا النحو، لقد كانت تمتلك جاذبية خاصة، فقد كان جسمها متناسقاً بصورة رائعة، وكانت بنيتها قوية وتكتسي بصوف متميز، وكانت رأسها نظيفة ولها أعين براقة. ولكنها كانت تضايق باقي الحملان القوية التي نضجت بسرعة.

ورغم كل الخصائص الجميلة، فقد كان فيها عيب واضح، كانت مضطربة وغير قانعة، ودائما ما تزحف تحت السياج حتى أنني دعوتها "السيدة المتسكعة".

وأياً كان الحقل أو المرعى الموجودة به الخراف، فقد كانت هذه النعجة تتطلع عبر السياج أو الساحل (حيث كانت إقامتنا بجوار البحر) تبحث عن ثغرة تستطيع من خلالها أن تزحف خارجاً

لكي ترعى وتلتقط غذاءها في الجانب الآخر.

لم تكن المشكلة أنها كانت تفتقر إلى مرعى، لقد كانت حقولي أفضل مراعٍ على الإطلاق ولا يمكن لأي خراف أن تجد راعياً أفضل مني.

لكن هذا كان طبْعاً مترسخاً في النعجة المتسكعة. وعندما كانت تجد منفذاً للخروج، كان الحال ينتهي بها إلى أفقرٍ المراعي، والتي يبس عشبها بسبب الحرارة. لكنها لم تتعلّم مطلقاً، وكانت تستمر دائماً في الزحف أسفل السياج. ولم تكن تقوم بذلك بمفردها رغم أنني قد أعاني في العثور عليها وإرجاعها مرة أخرى إلى المرعى، ولكن المشكلة الكبرى أن حملانها قد تعلّموا منها، وحذوا حذوها وكانوا يهربون بمهارة فائقة مثل أمهم.

ولكن الحال تطور إلى أسوأ من ذلك بكثير، فقد صارت مثالاً لبقية الأغنام حتى أنها استطاعت أن تقود باقي الأغنام للخروج من الثغرات الموجودة والذهاب إلى الطرقات الخطيرة....

ولهذا فقد استقر رأيي على أمر، فلكي أنقذ بقية القطيع من الفوضى وعدم الاستقرار، قمت باستبعادها. فلا أستطيع أن أسمح لنعجة عنيدة غير قانعة أن تفسد إدارة مزرعة بأكملها.

لقد كان القرار صعباً لأنني كنت أحبها مثل باقي الأغنام، وكنت معجباً بقوتها ورشاقتها وجمالها.

وكان لابد لي من تأديبها حتى لا تزحف أسفل السياج وحتى لا تتسبب في إثارة المزيد من المشاكل. لم أكن أريد أن أوقع بها هذا القصاص الصارم، ولكنه كان الحل الوحيد للقضاء على هذه المشكلة.

وهذا تحذير شديد اللهجة لكل مؤمن يسلك بحسب الجسد، ويريد أن يجمع ما هو أفضل، في هذا العالم، وفي الدهر الآتي.

الفصل الثالث

"فِي مَرَاعٍ خُضْرٍ يُرْبِضُنِي"

الفصل الثالث

"فِي مَرَاعٍ خُضْرٍ يُرْبِضُنِي"

من الأمور التي تسترعي الانتباه في الخروف، بنيته وتركيبة جسده بالذات، ومع ذلك فمن المستحيل أن يستلقي على الأرض ما لم تتوافر أربعة أمور.

فبسبب طابعه المتسم بالجبن، فإنه يرفض أن يستلقي ما لم يتحرر من كل خوف. وبسبب طابعه الاجتماعي وانتمائه لقطيع، فإنه لن يستلقي ما لم يتحرر من أي احتكاك مع الآخرين من شاكلته.

ولن يستلقي أيضاً إذا كان هناك ذباب يحوم حوله، أو طفيليات تعلق به، فلابدّ من التخلص من هذه الحشرات والأوبئة حتى يستلقي في راحة.

أخيراً لا بد أن يتحرر من كل شعور بالجوع، فلن يستلقي طالما كان هناك احتياج للطعام.

إذن من المهم للشعور بالراحة أن يكون هناك إحساس واضح

للتحرر من الخوف والتوتر والإثارة والجوع. والذي يمكنه أن يمنحهم التحرر من كل ما يسبب لهم القلق هو الراعي نفسه فقط، وكل هذا يتوقف على اجتهاد المالك سواء كان قطيعه متحرراً من التأثيرات المسببة للقلق أم لا.

وعندما نفحص كل عامل من العوامل الأربعة التي تؤثر بشدة على الخراف، سندرك روعة وأهمية الدور الذي يقوم به المالك، فهو الذي يمنحهم بالفعل إمكانية الراحة والازدهار والإحساس بالرضا.

وهذا الأمر ينطبق في الواقع على الناس.

فمن المعروف بصفة عامة، أن الخروف يتصف بقدر كبير جداً من الجبن، ويمكن إثارته بسهولة. وإذا قام بالفرار فجأة وقفز من خلف شجرة، فإن باقي القطيع كله سيصاب بالذعر. وإذا قام خروف بالعدو فزعاً، فإن فريقاً آخر سيعدو معه خائفاً دون الانتظار حتى لرؤية ما سبب لهم هذا الفزع.

في أحد الأيام، زارتني إحدى السيدات، وكان لديها جرو صغير صحبته معها من بكين، وما أن فتحت باب سيارتها حتى قفز الجرو باتجاه القطيع، وفي لحظة أصيب القطيع بفزع لا مثيل له حتى أن مائتي خروف كانوا يستريحون انتفضوا وأخذوا يجرون عبر المرعى.

وطالما كان هناك أقل شعور بالخطر سواء من الكلاب أو الذئاب أو أي عدو، فإن الخراف ستكون على أهبة الاستعداد للهروب خوفاً على حياتها. فليس لديها أية وسيلة للدفاع عن النفس ولا حول لها سوى العدو والهروب.

وعندما كنت أدعو أصدقاء لزيارتي بعد حادثة الجرو الصغير، كنت أحرص على التنبيه عليهم بعدم اصطحاب كلابهم معهم، بل وكنت أقوم بطرد الكلاب الضالة وإطلاق الرصاص عليها إذا لزم الأمر حتى لا تتحرش بخرافي أو تثير ذعرها. لقد عرفت أن هناك كلبين فقط قتلوا حوالي ٢٩٢ خروفاً في مجزرة في ليلة واحدة.

وعندما تطارد الكلاب أو الحيوانات المفترسة النعاج الحبلى، فقد يتسبب هذا في إسقاط الصغار قبل أوان ميلادها وتموت بسبب الإجهاض. فقد تصبح خسائر الراعي مريعة من جراء هذه الهجمات، وفي ذات صباح وجدت تسعاً من أجود نعاجي، ممن كانوا على وشك الولادة، قتلى عندما داهم أحد الفهود القطيع أثناء الليل. وقد تسبب هذا الأمر في إحداث صدمة كبيرة لشاب مثلي حديث العهد في تلك المهنة، وغير متعود على مثل هذه الهجمات، ومنذ ذلك الحين كنت أنام وبجواري بندقية وكشاف. وعندما يصدر أقل صوت من القطيع كدلالة على انزعاجه، كنت أنتفض من فراشي مصطحباً كلبي الوفي، وأسرع ممسكاً ببندقيتي

ومتأهباً لحماية خرافي.

وبمرور الوقت أدركت أن لا شيء يبدد خوف الخراف ويمنحها طمأنينة مثل تواجدي معها في الحقل. فوجود سيدهم ومالكهم وحاميهم يجعلهم يشعرون بارتياح كبير جداً وهكذا كنت معهم ليلاً ونهاراً.

وكان هناك صيف انتشر فيه لصوص الخراف في الحي الذي نقطنه، وكنت أسهر مع كلبي كل ليلة مهيئاً للدفاع عن القطيع من تلك الغزوات التي يقوم بها هؤلاء اللصوص. وسرعان ما انتشر خبر اجتهادي واستعدادي الدائم للذود عن خرافي مما حدا بهؤلاء اللصوص إلى مغادرة الحي ومزاولة ما يقومون به في مكان آخر.

"إنه يربضني"

لابد للمؤمن أن يدرك أن الراعي قريب منه، فليس ثمة شيء مثل حضور المسيح يستطيع أن يطرد الخوف والقلق من المجهول.

فنحن نحيا حياة متقلبة، ففي أية لحظة يمكن أن تحدث كارثة أو يقع خطر أو محنة من المجهول. الحياة مليئة بالمخاطر ولا يمكن لأحد أن يتنبأ بما قد يحمله اليوم من اضطرابات، إننا نحيا إما بإحساس يشوبه القلق والخوف والهواجس، إما بإحساس يسوده الهدوء والراحة. فأي منهما لدينا؟

وعموماً فإن المجهول غير المتوقع يجعلنا نشعر بالخوف، ومن وطأة هذا الخوف قد لا يستطيع معظمنا أن يتعامل مع الظروف الطاحنة وتعقيدات الحياة المؤلمة. فالمجهول عدو يهدد طمأنينتنا وغالباً ما يكون رد فعلنا هو الهروب.

ومع ذلك فإننا قد ندرك فجأة أن المسيح الراعي الصالح حاضر معنا، وهنا تختلف المواقف، فحضوره يغير المشهد كله تماماً، ولا نرى الأشياء سوداء أو مريعة بهذه الدرجة، بل نمتليء بالأمل، فنجد أنفسنا متحررين من الخوف ونعود إلى راحتنا فنستلقي هادئين. لقد كان هذا الشعور يغمرني مرة بعد أخرى وأنا أتقدم في العمر. وازددت معرفة بأن سيدي وصديقي ومالكي يُخضع كل الأشياء تحت سلطانه. وهذا يمنحني عزاءً عظيماً وراحة واسترخاء **"بِسَلاَمَةٍ أَضْطَجِعُ بَلْ أَيْضاً أَنَامُ لأَنَّكَ أَنْتَ يَا رَبُّ مُنْفَرِداً فِي طُمَأْنِينَةٍ تُسَكِّنُنِي"** (مزمور ٤: ٨)

> لابد للمؤمن أن يدرك أن الراعي قريب منه، فليس ثمة شيء مثل حضور المسيح يستطيع أن يطرد الخوف والقلق من المجهول.

إنَ عمل روح الله المعزي هو أن ينقل إلينا هذا الإحساس من المسيح إلى قلوبنا المضطربة، فروح الله ينساب إلى داخلنا بهدوء مؤكداً أن المسيح نفسه يعلم مشكلتنا ويصبح معنياً بها معنا، وبهذه الثقة نهدأ ونستريح.

"لأَنَّ اللهَ لَمْ يُعْطِنَا رُوحَ الْفَشَلِ، بَلْ رُوحَ الْقُوَّةِ وَالْمَحَبَّةِ وَالنُّصْحِ." **(تيموثاوس الثانية ١: ٧)**

والذهن المرتب هو الذهن المستريح في سلام ولا يعتريه الخوف أو يكون عرضة لهواجس المستقبل.

"بِسَلاَمَةٍ أَضْطَجِعُ بَلْ أَيْضاً أَنَامُ لأَنَّكَ أَنْتَ يَا رَبُّ مُنْفَرِداً فِي طُمَأْنِينَةٍ تُسَكِّنُنِي"

هناك مصدر ثان للخوف يحرر الراعي خرافه منه، وهو التوتر والتنافس الحاد بين أفراد القطيع نفسه.

إن كل مجتمع يحيا فيه الحيوان يقوم على أساس الهيمنة والفوز بمكانة أعلى وسط المجموعة. على سبيل المثال يوجد قانون في حظيرة الدواجن يدعى "قانون النقر" وبالنسبة للماشية "قانون القرن" بينما مع الخراف هناك "قانون النطح".

وعموماً فإن أكبر نعجة تكون لها طابع العجرفة والمكر والاستبداد، وهي المتقدمة بين مجموعة الخراف. وهي تستمد مكانتها من هيبتها ونطح النعاج والحملان الأخرى، وطردهم بعيداً عن أماكن الرعي الخصبة والمفضلة

لديها. وبنفس الأسلوب يخلفها في الرئاسة الخراف الأخرى، مستخدمة نفس الأسلوب من خلال النطح والسيطرة على من كانوا حولهم. وهناك صورة حية ودقيقة تجسد لنا هذا الموقف في حزقيال ٣٤: ١٥ – ١٦ وأيضا ٢٠ – ٢٢. وهذا في الواقع مثال مذهل لدقة أسلوب الكتاب المقدس في سرد ظاهرة طبيعية.

وبسبب هذا التنافس والتوتر والصراع والإصرار على التسلط، هناك احتكاك دائم بين القطيع، فالخراف لا تستطيع أن تستلقي وتستريح في هدوء، فلا بد أن تكون الخراف واقفة باستمرار لتدافع عن حقوقها وتتحدى الهيمنة.

وقد شاهدت مئات المرات نعجة متقدمة في العمر تتجه نحو نعجة تصغرها ربما كانت تتغذى وهي قانعة وهادئة ومستريحة، فتقوم بثني رقبتها وتحني رأسها، ثم تتجه لأخرى وهي تعدو بأرجل ثابتة وكأنها تقول لهم "تحركوا بعيداً أفسحوا لي الطريق تراجعوا وإلا..." ولو لم تستجب النعجة الأخرى على الفور وتتحرك بعيداً فإنها ستواجه نطحاً بلا رحمة. ولو أنها قبلت التحدي فسيقوم خروف أو اثنان بالتدخل والعمل على إبعادها لسلامتها.

هذا النـزاع المستمر والغيرة فيما بين أفراد القطيع يسبب ضرراً بالغاً. فالخراف تتقدم في العمر وتفقد قناعتها وراحتها وتكون في حالة توتر دائم، وتصبح سريعة الغضب. لكن هناك

أمر يثير اهتمامي دائماً وهو عندما أوجد بين الخراف، فإن وجودي دائماً ما يجذب الانتباه، وسرعان ما تنسى الخراف تنافسها الأحمق وتكف عن النـزاع. إن حضور الراعي يخلق موقفاً مختلفاً في سلوكها.

وكان هذا الأمر يجسّد أمامي صورة حية للصراع بين الناس، إنه التنافس المستمر أو على حد التعبير "إن لم أكن على مستوى أوناسيس (المليونير اليوناني) فلأكن على مستوى أولاده."

ويستمر الصراع على التمسّك بالذات والمظهر الكاذب في كل مكان عمل، وكل عائلة وكنيسة، وفي كل مجموعة كبرت أو صغرت. وصارع معظمنا ليكون "الخروف الرأس" فننطح ونتعارك ونتنافس لكي نكون "الرأس" وبسبب ما نقوم به يشعر الناس بالأذى.

وقد تتطور الغيرة الشديدة، ويتم تضخيم التبرم التافه ليصل إلى حد البغضة المريعة. ويتطور الشعور بعدم القناعة تدريجياً حتى يصبح أسلوب جشع في الحياة، حينما يريد الشخص أن يكون "منتصباً" لنفسه ولحقوقه، وكل همه أن يترأس على الجميع.

على النقيض من ذلك توضح لنا الصورة في هذا المزمور، أن أناس الله يستلقون في هدوء وقناعة "فالتقوى مع القناعة تجارة عظيمة" وقد صاغ بولس هذا الأمر قائلاً "لقد تعلّمت أن أكون

مكتفياً في كل شيء".

لن يكون هناك شعور بالراحة على الإطلاق لمن يحاول دائماً "أن يسبق" غيره، ويسعى لكي يكون هو الجدير بالاعتبار وصاحب المركز الأول في المجتمع.

وقد أشار الرب يسوع الراعي العظيم وبأسلوبه المميز إلى أن آخرين يكونون أولين، وأولين يكونون آخرين، وقد عني بهذا الأول في نطاق محبته الحميمة. فكل راعٍ لديه عاطفة قوية تجاه الخروف الضعيف الذي تلقى نطحاً كثيراً من الخراف المستبدة الأخرى.

وقد قمت مراراً بجلد نعجة عدوانية جلداً قاسياً، لأنها نبذت نعجة أضعف منها، وكانت تنطح حملاً غريباً عنها، ولم تكن مثل هذه النعجة هي الأفضل في تقديري بسبب طابعها العدواني، لذلك كان من الضروري أن أعاقبها.

وقد انتابتني الدهشة من أن الخراف الأقل عدائياً في طابعها، كانت تتمتع بقدر كبير من القناعة والهدوء وكانت تتمتع بمزايا واضحة من كونها خراف القاع أو خراف الذيل.

وأهم ما في هذا الأمر أن حضور الراعي كان يضع نهاية لكل تنافس. وهكذا عندما يحضر المسيح في وسطنا، فإنه سيضع حداً لحماقتنا وكبريائنا وتنافسنا. وسيكون، بدلاً من ذلك القلب

المتواضع السالك في هدوء وقناعة تامة لقربه واتحاده بعلاقة حميمة مع المسيح، القلب الذي ينعم بالراحة والاسترخاء والسعادة بما يكفل له الاستلقاء، ويدع العالم حوله يمضي.

وعندما أُثبِّت عينيّ على سيدي فلن ألتفت إلى غيره، فهذا هو موضع راحتي وسلامي.

ويجب أن أذكّر نفسي على الدوام أنه هو الذي سيقرر في النهاية ويحكم على حقيقة نفسي، وتقييمه لشخصي سيكون بمثابة النتيجة الحتمية. فكل المقاييس الإنسانية، مهما كانت أفضل، هي محددة ويصعب التنبؤ بها تماماً، ولا يُعتّد بها وأبعد ما تكون عن الواقع في النهاية.

وعندما أوجد بقربه، واعياً لحضوره الدائم، فإنه يملأ ذهني ومشاعري وإرادتي بالروح المعزي الساكن بداخلي، وهذا يحررني من حكم الآخرين ومما يظنونه فيّ.

إن الشعور بحضور الراعي سيكون أفضل لديّ من شغل مكانة مرموقة أو هيمنة في المجتمع، وخاصة عندما أكون قد حصلت على هذه المكانة بالصراع أو العراك أو التنافس المرير مع الآخرين.

"طُوبَى لِلرُّحَمَاءِ لأَنَّهُمْ يُرْحَمُونَ." (متى ٥: ٧)

ومن الضروري أيضا لراحة القطيع وهدوئه، أن يتحرر من الخوف من الحيوانات المفترسة ومن مضايقة الحشرات والطفيليات. وسوف نتناول هذا الجانب من السلوكيات بالتفصيل فيما بعد. ورغم ذلك فمن المهم أن نتكلم عنه هنا.

إن ما يثير انزعاج الخراف وبخاصة في فصل الصيف هو الحشرات الطائرة التي تحوم حولها، سواء التي تلدغها أو التي تحدث طنيناً. وعندما تتأذى من تلك الحشرات، يكون من المستحيل على الخراف أن تستلقي أو تسترخي، لكنها تهب واقفة أو تهز رأسها، أو تتدافع نحو الشجيرات تحك رأسها لتستريح من تلك الحشرات.

إن الروح القدس المعزي العامل فيّ يجعلني أتيقن من حضور المسيح. فهو مصدر السلام والصفاء والقوة والهدوء في مواجهة الإحباط واليأس.

فعندما ألتفت إليه، وأعرض عليه المشكلة، وأعرِّفَه بكل مكروه أصابني، وبالمصاعب التي أقابلها وبالخبرات السيئة التي تفوق قدراتي، فإنه يتدخل لتقديم العون لي... وغالباً ما يكون الحل

إيجابياً وسهلاً عندما أدعوه صائحاً "يا سيدي، إن هذا الأمر يفوق قدراتي ولا أستطيع التجاوب معه، إنه يسبب لي الضيق ولا راحة لي، فأرجوك ارفعه عني!" حينئذ يرفعه عني بطريقته العجيبة، فهو يمنح الشفاء والرضا والترياق الفعّال لأنه متواجد معي في مشكلتي الخاصة. وهنا أدرك على الفور تجاوبه مع مصاعبي، ويقوم بحلها بطريقة لا تخطر على بالي، وأكون على يقينٍ من أنه قد تفاعل مع المشكلة نيابة عني، لأن هناك إحساسا فريداً من الارتياح والرضا قد تسلل إلى داخلي، ومن ثمّ أستطيع أن أستلقي بسلام وأنعم بالراحة من أجل كل ما يفعله بي.

وأخيراً لكي يستلقي القطيع في هدوء وسلام، فلا بد أن يتحرر من الشعور بالجوع، وهذا ما يشار إليه بوضوح في الآية **"فِي مَرَاعٍ خُضْرٍ يُرْبِضُنِي"**.

ومن المعروف أن البلاد المتميزة على مستوى العالم في رعاية الخراف، هي بلاد تتسم بالجفاف. ومعظم السلالات الجيدة من الخراف موجودة في هذه المناطق، لأنها أقل عرضة للمخاطر الصحية ولانتشار الطفيليات بسبب مناخها الجاف. ولكن من الطبيعي أيضا عدم وجود مراع خضر في هذه المناطق. ففي فلسطين على سبيل المثال حيث كتب داود هذا المزمور، وحيث كان يرعى قطيع أبيه بجوار بيت لحم، كانت هذه المنطقة جافة وقاحلة بسبب أشعة الشمس الحارقة.

إن المراعي الخضراء لا توجد بالصدفة إنما بسبب فَعَلة ماهرين يعرفون كيف يصلحون الأرض، وينقّونها من الصخور والحشائش الضارة ويقومون بحرث الأرض وتهيئة التربة بعناية ويروونها بالمياه اللازمة، ويوجهون عنايتهم لتوفير المراعي الضرورية لغذاء القطيع. وكل هذا يتطلب مهارة فائقة وبذل الجهد والوقت من الراعي. إن تمتع الخراف بمراع خضراء تحيط بها التلال القاحلة إنما يشير إلى الجهد الهائل الذيً بذله هذا الراعي.

إن المراعي الخضراء هامة جداً في تربية الخراف، فعندما تبدأ الحملان في النمو، فإن النعاج تحتاج إلى غذاء وافر لكي تضمن تدفق الحليب الدسم. وليس ثمة منظر يرضي مالك القطيع مثلما يرى قطيعه يتغذى حسناً على علف أخضر ووفير بما يكفل له الراحة وازدياد وزنه.

إن الخروف الجائع والمفتقر إلى الغذاء الجيد، سيظل واقفاً على أرجله، باحثاً عن موضع آخر، فيه ما يسد بالكاد جوعه. ومثل هذه الخراف تكون غير قانعة، ولا تنمو ويصيبها الوهن، وتفتقر إلى الحيوية والنشاط، ومن ثم تصبح بلا فائدة لمالكها.

إن الصورة التي وُصفت بها أرض الموعد في الكتاب المقدس، والتي حاول الله أن يقود إليها شعبه بعد خروجه من مصر، هي أنها كانت "أرضاً تفيض لبناً وعسلاً". لم تكن هذه صيغة تشبيهية ولكنها أيضا مصطلح علمي. فعندما تتكلم من منطلق أساليب

الزراعة عن "تدفق الحليب" و"تدفق الشهد"، فإننا نعني بهذا ذروة موسمي الشتاء والصيف حيث تصل المراعي إلى أقصى مراحل إنتاجيتها. فالماشية تتغذى على العلف، والنحل يتغذى على رحيق الزهور، وهكذا يقال إنها تنتج بغزارة حليباً وشهداً. فالأرض التي تفيض لبناً وعسلاً هي أرض خصبة، خضراء وغنية بالمراعي.

وعندما تكلّم الله عن هذه الأرض لشعبه إسرائيل، فإنه كان يوفر لهم حياة غنية بالبهجة والنصرة والاكتفاء.

وفي العهد القديم كان انتقال إسرائيل كإبن لله من أرض مصر إلى أرض الموعد، تشبيهاً لانتقالنا نحن من الخطية إلى حياة النصرة. لقد صارت هذه الحياة متاحة لنا، فقط بمعاناة المسيح المنقطعة النظير عوضاً عنا.

إنه يعمل باستمرار ليطهر الحياة الصخرية الحجرية غير المؤمنة، ويحاول أن يقتلع جذور المرارة، فهو يحاول تحطيم صلابة وكبرياء قلب الإنسان الذي يشبه التربة الجافة بفعل حرارة الشمس، ثم يغرس فيها كلمته الثمينة التي لو قبلها الإنسان بعناية فإنها تأتي بثمار كثيرة من القناعة والسلام. فهو يرويها بقطرات الندى، وبأمطار حضوره، بالروح القدس. إنه يحبنا ويعتني بنا ويزرع فينا الحياة لكي تكون خصبة بخضرتها وإنتاجيتها. وكل هذا يعطي انطباعاً عن جهد وعمل راعٍ يتمنى أن يرى خرافه قانعة وحسنة

التغذية، وهذا يدل على أن راعيّ يسدد كل احتياجاتي على أفضل وجه، وعليّ أن أتمتع وأهتم بكل ما يعطيني إياه.

وهذه الحياة من الغلبة في هدوء، والاسترخاء في سعادة، والراحة في حضوره، والثقة في أنه يوّجه شئوني، قد لا يتمتع بها على أكمل وجه سوى عدد قليل من المؤمنين.

إننا قد نفضل بسبب فسادنا، أن نقتات في الأرض القاحلة من العالم حولنا، لقد كنت أتعجب كيف أن بعض خرافي كانت تختار في بعض الأوقات علفاً أقل. لكن الراعي الصالح وفرّ مراع خضراء لهؤلاء الذين يهتمون بالذهاب إليها لكي ينعموا بالسلامً والرخاء.

الفصل الرابع

"إِلَى مِيَاهِ الرَّاحَةِ يُورِدُنِي."

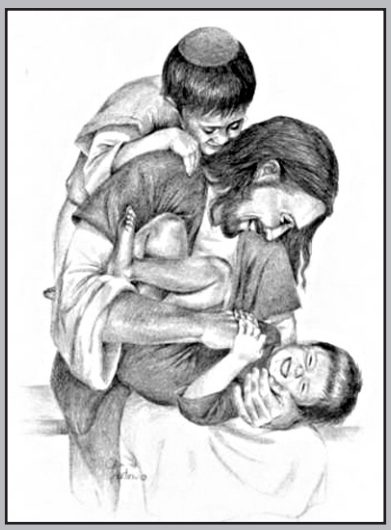

الفصل الرابع

"إِلَى مِيَاهِ الرَّاحَةِ يُوِرِدُنِي."

رغم أن الخراف في البلاد الشبه قاحلة تنمو سريعاً، إلا أنها لا تزال في حاجة للمياه. فهي ليست مثل الغزال الأفريقي الذي يمكنه أن يتغذى على مجرد الرطوبة الموجودة في الأعشاب الطبيعية. ومن الملاحظ هنا أن إمكانية الحصول على المياه تكون من خلال الراعي. فهو الذي يعرف أين توجد أفضل الأماكن التي توجد بها المياه، وهو الذي يبذل جهداً كبيراً لتهيئة أماكن الشرب ويقود القطيع إليها.

ولكن قبل أن نتكلم عن مصادر المياه، يجب أن نفهم الدور الذي تقوم به المياه في جسم الحيوان ومدى أهميتها. فالمياه تمثل في المتوسط نسبة ٧٠ ٪ من جسم الحيوان، وهي تستخدم في تنشيط عملية التمثيل الغذائي المعتادة، وهي نسبة معينة لكل خلية وتسهم في القيام بوظائف الحياة الطبيعية. فالمياه تمنح النشاط والقوة والحيوية للخروف، وهي ضرورية لصحته ولكيانه بصفة عامة.

ونقص المياه في جسم الحيوان يصيبه بالجفاف، وقد يؤدي إلى

خسائر جسيمة، فهذا يعني أن الحيوان أصبح ضعيفاً ومعتلاً.

وكما أن الجسد الطبيعي يحتاج للمياه، كذلك أيضا يشير الكتاب المقدس بوضوح إلى أن النفس البشرية تحتاج هي أيضاً إلى الماء الروحي، لله الأزلي.

وكما أن الجسد الطبيعي يحتاج للمياه، كذلك أيضا يشير الكتاب المقدس بوضوح إلى أن النفس البشرية تحتاج هي أيضاً إلى الماء الروحي، لله الأزلي.

فعندما تعطش الخراف، تفقد راحتها وتخرج للبحث عن مياه تطفئ ظمأها. وإذا لم يتم توجيهها إلى مصادر للمياه النقية، فسينتهي بها الحال للشرب من مياه ملوثة تحيا فيها الطفيليات كالديدان السلكية، والديدان العريضة التي تصيب الكبد، وأيضا الجراثيم التي تسبب لها الأمراض.

وبنفس الطريقة وضح لنا الرب يسوع راعينا الصالح أن النفوس العطشى يمكن سد ظمأها تماماً عندما تسدد حاجتها للمياه الروحية لحد الامتلاء عن طريق قبولها لشخصه المبارك.

ففي إنجيل متى ٥: ٦ يقول **"طُوبَى لِلْجِيَاعِ وَالْعِطَاشِ إِلَى الْبِرِّ لأَنَّهُمْ يُشْبَعُونَ."** وفي عيد المظال أعلن يسوع في أورشليم "إن عطش أحد فليقبل إليّ ويشرب" وكلمة "يشرب" في المفاهيم الروحية تعني ببساطة "يُقبل إليّ" أو "يتقبل" أو "يؤمن" بمعنى أن يقبل الشخص ويتشّبه بنفس حياة الله المتمثلة في المسيح التي

يصبح فيها جزءاً منه.

وهنا توجد صعوبة، فالأشخاص "العطشانين" للرب والذين لديهم حاجة عميقة داخل نفوسهم للبحث والاستقصاء، والسعي في طلب ما يشبعهم تماماً، غالبا ما يكونون غير متيقنين من المكان الذي يبحثون فيه. فطاقاتهم الروحية داخل نفوسهم لمعرفة الله وقبول الحياة الإلهية تتسم بالجفاف، ولأجل هذا فهم يشربون من أي بئر ملوث كمحاولة لإرواء عطشهم.

وقد لخّص القديس أغسطينوس هذا الأمر فقال "لقد خلقتنا يا الله لك، وستظل أنفسنا حائرة إلى أن تجد الراحة معك."

وقد ظلت الديانات الأرضية وعبادة الأوثان والفلسفات الإنسانية على مدى التاريخ في شغف وتعطش لن يرويه سوى الله.

وقد أدرك داود هذا الأمر عندما كتب مزمور ٢٣، فكتب وهو يتطلع إلى حياة الخروف من وجهة نظره: "وإلى مياه الراحة يقودني (الراعي الصالح)" وبمعنى آخر أدق فإن الراعي الصالح وحده يعلم أماكن المياه الهادئة العميقة، الصافية، والنقية والتي يمكنها وحدها أن تروي الخراف وتجعلها قوية وصحيحة.

عموماً، هناك ثلاثة مصادر رئيسية للمياه الخاصة بالخراف: الندى على العشب، والآبار العميقة، والينابيع الجارية.

وقد لا يعلم معظم الناس أنه قد تمر أشهر على الخراف دون أن ترتوي بالفعل، لو كان هناك ندىٍ كثيف على العشب كل صباح، وبخاصة لو كان الطقس معتدلاً. وعادة ما تنهض الخراف قبل الفجر وتبدأ في تناول طعامها، أو أنها ترعى بالليل تحت ضوء القمر. ففي ساعات الصباح الباكر عندما تكون النباتات مبللة بالندى، تحظى الخراف بقدر لا بأس به من المياه يجعلها تحتفظ بصحتها.

بلا شك فإن الندى مصدر للمياه يتسم بالصفاء والنقاوة. وليس ثمة صورة أكثر تألقاً للمياه الساكنة من قطرات الندى الفضية والموجودة بكثافة على الأغصان والأعشاب فجر كل يوم. إن الراعي الصالح المجتهد متيقن من أن خرافه يمكنها أن تخرج للرعي على هذا الندى الذي تَجمّع على العشب. وإذا لزم الأمر، فلابد له أن يستيقظ هو نفسه باكراً ليخرج مع قطيعه، ويكون حريصاً على أن تستفيد خرافه من هذا الرعي المبكر.

ومن الرائع في الحياة المسيحية، أن غالبية أولئك الذين يتصفون بالهدوء والثقة، والذين يستطيعون مواجهة مصاعب الحياة، هم الذين يستيقظون مبكراً ليتغذوا على كلمة الله في هدوء ساعات الصباح الباكر، ويقتادون إلى ينابيع المياه الهادئة

حيث يتذوقون عذوبة الحياة مع المسيح. إن سيرة العظماء العطرة من الرجال والنساء مع الله، تشهد باستمرار عن أن سبب نجاح حياتهم الروحية، يعود إلى "الوقت الهادىء" كل صباح، حيث يترقبون صوت السيد الذي ينساب بسلاسة إلى ذلك الموضع حيث تشير الترنيمة القديمة "قطرات ندى روحه القدوس الهادئة تتدفق على روحي وحياتي".

فبعد ساعات التأمل والمناجاة والتلامس مع المسيح تعود النفس منتشية سواء بالذهن أو بالروح، فيتلاشى العطش ويمتليء القلب رويداً رويداً.

إنني أستطيع بعين ذهني أن أرى قطيعي مرة أخرى. ففي ساعات الصباح الباكر الهادئة والمعتدلة، دائما ما كنت أجد خرافي راكعة وهي ترتوي بقطرات الندى، وتتغذى حتى الشبع وعندما تشرق الشمس، وتبدّد حرارتها قطرات الندى، فإن القطيع يمضي ليبحث عن مكان يستظل فيه، وهناك يرتاح مستلقياً ومتمتعاً طوال اليوم. وهذا الأمر يجعلني أشعر بقدر كبير من السعادة.

وإنني لعلى يقين من أن هذا أيضاً هو رد فعل سيدي، فعندما أبدأ يومي بنفس الطريقة، فهو يحب أن يراني قانعاً، هادئاً، ومستريحاً وهانئاً، إنه يبتهج عندما تشبع وتنتشي نفسي وروحي.

ولكن الأمر ليس كذلك بالنسبة لمعظم المسيحيين. فهم غالباً ما يحاولون البحث عن بدائل أخرى ليرووا عطشهم.

لديّ بعض الأصدقاء ممن يحظون بالاحترام اللائق على مستوى الدولة، لأنهم أكثر علماً ولهم دراسات في مجالات عديدة ورغم ذلك لديهم اشتياق عجيب لما يروي ظمأهم الذي لم تستطع كل دراساتهم وانجازاتهم ومعرفتهم أن تسده.

ولكي يشبعوا أرواحهم ومشاعرهم يتجه معظم الناس إلى الثقافة والأدب والموسيقى بكافة أشكالها في محاولة لتحقيق هذا الإشباع. وغالباً ما يكون هؤلاء الناس ممن أنهكت قواهم والأكثر كآبة. ومن بين هؤلاء الناس بعض الكتاب والموسيقيين المرموقين الذين يرون أن الحياة مليئة بالسخرية والزيف. وحاولوا أن يشربوا كثيراً من آبار العالم، ولكنهم لم يرتووا أبداً. أَجَابَ يَسُوعُ: **"كُلُّ مَنْ يَشْرَبُ مِنْ هَذَا الْمَاءِ يَعْطَشُ أَيْضاً."** **(يوحنا ٤: ١٣)**

وهناك أشخاص يبحثون عن وسائل أخرى، فيسافرون من مكان لآخر، أو يشتركون بقوة في أنشطة رياضية، ويحاولون الخوض في المغامرات بكافة أنواعها أو يندمجون في أنشطة اجتماعية مختلفة، ولكنهم في النهاية يجدون أنفسهم في مواجهة نفس النزاع والخوف بدون ارتواء.

وقد أعلن إرميا النبي هذه الحقيقة بوضوح فقال: **"لأَنَّ شَعْبِي عَمِلَ شَرَّيْنِ: تَرَكُونِي أَنَا**

يَنْبُوعَ الْمِيَاهِ الْحَيَّةِ لِيَنْقُرُوا لأَنْفُسِهِمْ آبَاراً آبَاراً مُشَقَّقَةً لاَ تَضْبُطُ مَلاً." (إرميا ٢: ١٣)

إنها صورة واضحة تصف بدقة حياة محطمة، وآمالاً ضائعة وأنفساً خاوية جافة وظمآنة، تغطيها أتربة اليأس.

ويتجه الشباب وبخاصة الجيل الصاعد إلى المخدرات، والكحوليات ونجاسات الجسد الملجنة لإخماد ظمأهم، رغم أن هناك أدلة كبيرة وواضحة على أن مثل هذه الانغماسات الدنيئة لا يمكن أن تكون بديلاً عن روح الله القدوس. إنهم يشبهون خزانات مياه محطمة، فحياتهم تتسم بالبؤس. ولقد تحدثت مع واحد من "الهيبيز" ممن يدّعون الشعور بفرح حقيقي على حد تعبيره، ولكن تعبيرات وجهه تعكس اليأس الذي تملّكه.

وفي وسط هذا الصخب والمجتمع المريض، يأتي المسيح بهدوء الحكيم المختبر ويدعونا لشخصه، فهو يدعونا لنتبعه ونضع ثقتنا فيه فهو الوحيد الذي يعلم ما هو الأفضل لإشباعنا. إنه يعرف بقدرته الفائقة قلب الإنسان وروحه. فليس هناك بديل عن الله كمصدر للشبع والارتواء. فقط روح وحياة المسيح هي التي تشبع وتروي النفس العطشى. ومن الغريب كما يبدو في الظاهر، أن آبار الله العميقة التي نرتوي منها، لا تحمل بالضرورة الخبرات المفرحة التي نتخيلها.

وأعود بذاكرتي للوراء، وأتذكر بوضوح عندما كنت أقف تحت شمس خط الاستواء الحارقة في أفريقيا، وأنا أشاهد القطعان التي يتم قيادتها إلى الآبار التي يمتلكها أصحابها. وكانت بعض هذه الآبار ضخمة على هيئة كهوف، تم نحتها بالفؤوس على امتداد الأنهار الرملية، وكانت تشبه حجرات ضخمة منحوتة في الصخر تنحدر فيها المياه حتى القاع، وكانت الخراف ترتوي من تلك الخزانات العميقة الممتلئة بالمياه الصافية.

وكان المالك يقف أسفل البئر عارياً، وهو ينـزح المياه ليرتوي القطيع. لقد كانت مهمة شاقة وثقيلة. فكان عرقه يتصبب، وجلده يلمع من وهج حرارة الشمس.

وبينما كنت واقفاً هناك أشاهد الحيوانات وهي تروي ظمأها من المياه الصافية، كنت أنبهر أيضا بدرجة كبيرة بحقيقة أن كل شيء كان متوقفاً على اجتهاد الراعي. فمن خلال جهده، وعذوبته وقوته، تستطيع الخراف أن تشبع وترتوي.

وهكذا الحال أيضا في الحياة المسيحية. فالعديد من المواضع التي نُقاد إليها، قد تبدو مظلمة، وسحيقة وخطرة إلى حد ما، وغير مرغوب فيها. ولكن يجب أن ندرك أن الراعي الصالح معنا هناك، فهو يعمل إلى أقصى حد في ذلك الموضوع. إنها طاقته، وجهده، وقدرته التي يبذلها عوضاً عني. حتى أنه يدخل إلى هذا الموضع العميق المظلم ليقدم لي خيراً ومنفعة. فهو هناك حيث

أكتشف أنه وحده كفايتي، وهو الذي يعطي معنى للحياة، فأدرك أنني موضع اهتمامه وعنايته الفائقة، وأجد فيه الشبع والاكتفاء.

وهناك بالطبع مجموعة من الناس على النقيض من ذلك، يرفضون السماح لله بقيادتهم، فهم يصرون على توجيه حياتهم الخاصة، والانقياد لشهواتهم ونزاوتهم الخاصة التي تمليها عليهم إرادتهم. وهم يصرون على أن لديهم المقدرة بأن يكونوا أسياداً لتحديد مصادرهم حتى لو أدى ذلك إلى هلاكهم. فهم لا يريدون الانقياد بروح الله، إنهم يريدون السلوك بطرقهم الخاصة، والشرب من أي مصدر آخر، قد يتخيلون أنه يشبع نزواتهم.

وهم يذكّرونني بمجموعة من الخراف، رأيتها تُقاد إلى مجاري مياه رائعة الجمال حيث كانت المياه الباردة تنساب نقية كالبللور بين صفين من الأشجار، ولكن كانت هناك عدة نعاج تتوقف في الطريق مع حملانها لتشرب من برك صغيرة موحلة، وكانت المياه ملوثة بمخلفات القطيع الذي سبق ومر من هذا الطريق، ورغم هذا، كانت هذه النعاج العنيدة تعتقد أن هذه هي أفضل مياه للشرب.

وغالباً ما ينتهج بعض الناس نفس الأسلوب مرددين العبارة الشائعة: "وماذا هناك؟ فأنا لا أرى أن هذا سيؤدي إلى ضرر!" ثم يأملون أن ينقضي الوقت قبل أن يجنوا عاقبة سوء حكمهم على الأمور. ولكنهم يقعون في ورطة شديدة ويتعجبون عن سبب

ذلك. وحتى نتجنب تلك المخاطر ونصبح في أمان، فإن الله يدعونا أن نسلم أنفسنا لقيادة وتوجيه روحه المعزي القدوس. وهناك تأكيدات كثيرة في الكتاب المقدس توضح أن أولاد الله لن يمروا بضيقات تفوق قدرة احتمالهم، كما يقول بولس في رسالته إلى غلاطية الإصحاح الخامس وأيضاً في رسالة رومية الإصحاح الثامن.

يؤكد الرب يسوع لتلاميذه قبل موته مباشرة في إنجيل يوحنا من الإصحاح الرابع عشر وحتى الإصحاح السابع عشر، أن الروح القدس المعزي الذي سيرسله إلينا، سيقودنا إلى الحق كله. فهو المرشد والمعلم الذي سيقودنا إلى الأمور الخاصة بالمسيح، وسيجعلنا نرى أن الحياة في المسيح هي الحياة الحقة المشبعة... وسنمتليء ببهجة إشباع نفوسنا بحضوره.. فالرب يسوع سيكون مأكلنا ومشربنا الحق، حيث أنني سأنتعش وسأشبع بقيامته وبحياته التي مُنحت لي بالروح القدس.

الفصل الخامس

"يَرُدُّ نَفْسِي"

الفصل الخامس

"يَرُدُّ نَفْسِي"

لا يجب أن ننسى طوال دراستنا لهذا المزمور، أن المتحدث هو الخروف الذي يحيا في عناية الراعي الصالح، ومن الضروري أن يقر المؤمن بانتمائه لعائلة الرب. وهكذا يفتخر ببركات تلك العلاقة. وقد يتساءل شخص ما، ماذا وراء هذه العبارة "يرد نفسي"؟ من المؤكد أننا سنتوقع أن أي شخص يكون في عناية الراعي الصالح لن يمر بضيق في نفسه بحيث يحتاج أن يرد نفسه، ولكن هذا الأمر لن يحدث في الواقع.

إن داود كاتب هذا المزمور، والذي كان محبوباً جداً من قبل الرب، أدرك ما يحني كاهله ويصيبه بالكآبة. لقد ذاق المذلة في حياته، وشعر بالإحباط نتيجة وقوعه في تجارب. لقد تعود في حياته على مرارة الشعور بفقدان الأمل والقوة.

ويصرخ في مزمور ٤٢: ١١ قائلاً **"لِمَاذَا أَنْتِ مُنْحَنِيَةٌ يَا نَفْسِي وَلِمَاذَا تَئِنِّينَ فِيَّ؟ تَرَجَّي اللهَ ..."** وهكذا يكون الموقف مماثلاً تماماً في العناية بالخراف. إنّ المتآلفين مع الخراف وعاداتها هم وحدهم

الذين يفهمون معنى أن يكون الخروف "منطرحاً على ظهره"

وهذا لفظ انجليزي قديم يقوله الراعي عن الخروف الذي ينطرح على ظهره ولا يمكنه النهوض بنفسه.

فالخروف المنطرح على ظهره يكون منظره مؤثراً جداً، فهو ملقى على ظهره، أرجله في الهواء، ويصاب جلده بخدوش وهو يصارع في هياج لكي ينهض ولكن بلا جدوى. وأحيانا يصدر أصواتاً خافتة ملتمساً العون. عموماً فإنه عندما يكون منطرحاً على ظهره يكاد اليأس والخوف أن يبتلعاه.

وإذا لم يدرك الراعي الخروف في وقت مناسب قصير، فإن الخروف سيقضي نحبه. هذا سبب آخر لضرورة أن يطّلع الراعي الحريص على أحوال قطيعه كل يوم، فإنه يقوم بعدّه، ويعاين ما إذا كان هناك خروف غير قادر على الوقوف. وإذا كان هناك واحد مفقود، فأول ما يطرأ على ذهنه في الأغلب هو أن هذا الخروف قد يكون "منطرحاً على ظهره" في أحد الأماكن. ويذهب ليبحث عنه ويقيمه مرة أخرى.

كانت لديّ نعجة من سلالة كثيفة الصوف، كانت معتادة على هذا الأمر. ففي كل مرة تكون فيها حبلى، كانت تنطرح على ظهرها كل يومين أو ثلاثة. والذي أبقاها على الحياة موسماً بعد آخر هو حرصي واجتهادي. وفي إحدى السنوات، كان لابد

أن أغادر المزرعة لبضعة أيام، فدعوت إبني الصغير وطلبت منه أن يتولى مسئولية العناية بها أثناء فترة غيابي ووعدته بأن أمنحه مكافأة لو قام بهذا العمل. فكان يذهب كل مساء إلى الحقل بعد عودته من المدرسة، ويُنهض هذه النعجة العجوز حتى تبقى على قيد الحياة. لقد كانت مهمة شاقة، ولكنها كافأتنا بولادة توأم من الحملان الجيدة.

ليس الراعي فقط هو الذي يثبّت عينيه على الخراف المنطرحة على ظهرها، ولكن أيضا الحيوانات المفترسة والطيور الجارحة تعلم كلها أن الخروف المنطرح على ظهره هو فريسة سهلة، والموت ليس بعيداً عنه.

وهذا الأمر يشكل مشكلة كبرى خطيرة يجب على مدير المزرعة أن يواجهها، فلا شيء يستنفذ عزيمته واجتهاده بالقطيع أكثر من إدراكه لهذه الحقيقة، أنه حتى الخروف الأسمن، والأقوى، وأحيانا الأوفر صحة، قد ينطرح على ظهره فتحدث الكارثة، وفي الواقع غالباً ما يكون الخروف السمين هو الأكثر إنطراحاً على ظهره بسهولة. فقد يصاب هذا الخروف بحالة من القلق والإحباط، وقد ينطرح على جنبه ليفرد جسمه أو يسترخي، وفجأة يتغير مركز جاذبية جسمه تحت ثقله، بحيث ينقلب على ظهره لدرجة أن أرجله لا تلمس الأرض، فتنتابه حالة من الذعر ويبدأ في هز أرجله بهياج شديد، وغالباً ما يتطور الأمر إلى أسوأ، وينقلب

بدرجة أكبر تجعله عاجزاً تماماً على النهوض مرة أخرى.

وبينما يصارع الخروف وهو منطرح على ظهره، تتكون غازات داخل المعدة تتسبب في إعاقة وصول الدورة الدموية لمعظم أجزاء الجسم وبخاصة الأرجل، فلو كان الطقس حاراً جداً ومشمساً يبقى الخروف حياً لعدة أيام وهو منطرح على ظهره.

ولو كانت النعجة المنطرحة على ظهرها حبلى، فإن هذا بالطبع يتسبب في خسارة مضاعفة للمالك. فإذا لم تتم ولادة الحملان بعد، فستهلك هي أيضا مع أمها، ولو كانت الحملان صغيرة ورضيعة فإنها ستفقد أمها مما يزيد الوضع تعقيداً.

ولهذا كله، فإن راعي الخراف يجب أن يكون متنبهاً ويقظاً على الدوام لمثل هذه المواقف. وطوال سنوات رعايتي لقطعاني، فإن أكثر ما يثير ذاكرتي الآن، يدور حول قلقي المتزايد للحفاظ على عدد قطيعي، وإنقاذ الخروف المنطرح على ظهره، وليس من السهل التعبير عن هذه المشاعر. فغالباً ما كنت أخرج في الصباح الباكر لمجرد معاينة السماء بعين فاحصة، فلو رأيت الصقور باسطة أجنحتها السوداء الطويلة، وهي تحوم في حلقات دائرية واسعة، كنت أشعر بالقلق فاذهب على الفور تاركاً كل شيء لكي أعد قطيعي لأتأكد من أنه يتمتع جميعه بصحة جيدة وأنه واقف على أرجله.

وهذا هو سبب البهجة التي صُورت لنا في القصة الرائعة الخاصة بالخراف التسعة والتسعين والخروف الضال. وهو المثل الذي وضّح لنا شغف الراعي العميق، وما تكبده من عناء البحث، واشتياقه أن يجد المفقود، وكذلك فرحه العظيم باستعادته وضمه مرة أخرى إلى القطيع.

لقد كنت، مراراً وتكراراً، أقضي ساعات باحثاً عن خروف واحد مفقود، وعندما كنت أراه من بعيد منطرحاً على ظهره لا حول له ولا قوة، فإنني كنت أركض نحوه بقدر ما أستطيع من سرعة، لأن كل دقيقة تمر كانت تزيد الموقف صعوبة، وكان ينتابني إحساس بالخوف ممتزجاً بالبهجة، الخوف من أن أكون متأخراً، والبهجة لأنني قد وجدته.

وكان رد فعلي بمجرد وصولي إلى النعجة المنطرحة هو أن أنتشلها على الفور، ثم أدحرجها برقة على جانبها مما يخفف من ضغط الغازات في معدتها، ولو كانت منطرحة منذ وقت طويل، فسأضطر إلى رفعها وإقامتها على أرجلها، ثم أقوم بإبعاد أرجلها عن بعضها باستخدام قدميّ. ثم أدلك أطرافها حتى تسري الدماء فيها. ويستغرق هذا الأمر وقتاً قصيراً، وعندما تبدأ النعجة في السير مرة أخرى، فإنه غالباً ما تزل أرجلها وتترنح وتسقط متكومة مرة أخرى.

وكل هذا الوقت أقضيه مع النعجة المنطرحة، وكأنني أقول لها "متى ستتعلمين كيف تقفين على أرجلك؟. إنني في غاية السعادة أنني قد وجدتك في الوقت المناسب."

وشيئاً فشيئاً كانت الخراف تسترجع توازنها وتبدأ في السير باتزان وبدقة، ويفارقها حزنها بعد قليل وتعاود الانضمام للآخرين، وتتحرر من خوفها وإحباطها لأنها مُنحت فرصة أخرى للحياة فترة أطول.

ولهذا فإن البهجة تتسلل إلى قلبي وذهني عندما أردد هذه العبارة البسيطة "يرد نفسي". هناك شيء في هذه الصورة خصوصي جداً، ورقيق جداً، ومحبب للغاية وأيضا محفوف للغاية بالمخاطر. فمن جهة كان الخروف بلا رجاء، مشلولاً تماماً رغم كونه قوياً، ويتمتع بصحة جيدة، ولكن من جهة أخرى هناك المالك المستعد لأن يذهب فوراً لإنقاذه بصبر بالغ وبرقة متناهية.

هناك تماثل إلى حد ما لمثل هذه المواقف في الحياة المسيحية، فالعديد من الناس يعتقدون أنه عندما يسقط واحد من أولاد الله في الخطية، يصبح محبطاً، بلا رجاء، متورطاً روحياً، ولهذا فإن الله ينفر منه ويعلن غضبه عليه.

إن الأمر، ببساطة، ليس هكذا.

إن إحدى أعظم الإعلانات التي أعلنها الله لنا، وهي صادرة

من قلبه من خلال المسيح، أنه هو نفسه راعينا ولديه نفس إحساسات القلق والاهتمام والشفقة لمن يسقط من أولاده. وهذا يفسر لنا سعة صدره في التعامل مع الأشخاص سواء المنطرحين أو البعيدين أو حتى المنبوذين من المجتمع، ويكشف عن سبب بكائه على الذين استهزأوا بعاطفته نحوهم، ويوضح عمق تفهمه للناس البطّالين الذين جاء إليهم باشتياق وبسرعة، مبدياً استعداده لمعونتهم وإنقاذهم واستعادتهم.

إن إحدى أعظم الإعلانات التي أعلنها الله لنا، وهي صادرة من قلبه من خلال المسيح، أنه هو نفسه راعينا ولديه نفس إحساسات القلق والاهتمام والشفقة لمن يسقط من أولاده.

وعندما أقرأ حياة السيد المسيح، وأختبر بعناية تجاوبه مع الاحتياجات البشرية، فإنني دائماً ما أراه كالراعي الصالح الذي ينتشل الخروف المنطرح. فالرقة والمحبة والأناة التي استعاد بها نفس بطرس بعد سقوطه المأساوي المريع، هي صورة تقليدية لما يعمله دائماً الرب يسوع لاستعادة أحد أخصائه.

إنه يأتي بهدوء ولطف، مانحاً الثقة لي بغض النظر عن زمان ومكان وكيفية العثور عليّ. وفي مزمور ٥٦: ١٣ تعبر كلماته

تعبيراً دقيقاً عن هذا الجانب من الحياة المسيحية **"لأَنَّكَ نَجَّيْتَ نَفْسِي مِنَ الْمَوْتِ. نَعَمْ وَرِجْلَيَّ مِنَ الزَّلَقِ لِكَيْ أَسِيرَ قُدَّامَ اللهِ فِي نُورِ الأَحْيَاءِ"**. يجب أن نكون واقعيين فيما يختص بحقيقة أولاد الله ونواجه الحقائق كما هي في الواقع. فمعظمنا رغم انتمائنا للمسيح ورغبتنا في أن نكون تحت توجيهه، وسعينا للسماح له بقيادة نفوسنا، فإننا قد نزل ونجد أنفسنا منطرحين.

ونكتشف أنه عندما نكون واثقين تماماً بأنفسنا، فإننا نعثر ونسقط، وعندما يبدو أننا ننمو في الإيمان، نجد أنفسنا في موقف لا يُعبَّر عنه من الإحباط. لذلك كتب بولس في الرسالة إلى أهل كورنثوس يحذرهم من هذا الخطر. **"إِذاً مَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ قَائِمٌ فَلْيَنْظُرْ أَنْ لاَ يَسْقُطَ."** (كورنثوس الأولى ١٠: ١٢)

ربما يبدو هذا الأمر كأحد المتناقضات والأمور غير المفهومة في حياتنا الروحية، ومع هذا فعندما نختبرها بعناية، لا نجدها صعبة الفهم. ومما يساعد على فهم الطريقة التي يعثر بها المؤمن، ذلك التماثل الموجود في الطباع بين الخراف والمؤمنين.

فهناك أولاً فكرة البحث عن الموضع الناعم المريح. فالخراف تختار تجاويف في الأرض ناعمة تستلقي فيها، ومن ثم فإنها غالباً ما تنطرح على ظهرها. ففي مثل هذا الوضع يكون من السهل أن تتدحرج على ظهرها.

كذلك أيضاً في الحياة المسيحية، فهناك خطر شديد في البحث

دائماً عن الموضع السهل، والركن الهادىء والوضع المريح حيث لا مشقة، ولا معاناة، ولا حاجة لتهذيب النفس. فعندما يحين الوقت الذي نفكر فيه "أننا قد أنجزناها" فإننا نكون بالفعل في خطر مميت. فهناك شيء كالتهذيب من خلال الفقر والعوز، ويمكن فرضه على النفس، ليمنحنا عالماً من الخيرات. وقد اقترح الرب يسوع هذا الأمر على الشاب الغني، الذي اعتقد خطأ أنه كان في موضع آمن، بينما كان في الحقيقة على حافة الانهيار. ففي بعض الأحيان، قد ينقلني الراعي الصالح من موقع تدليل نفسي، وعدم رغبتي في أية خسارة، أو حرصي على السعي نحو المياه المريحة، إلى مرعى لا تكون فيه الأشياء مريحة تماماً، وهو يعمل ذلك ليس فقط لخيري بل أيضاً لما فيه منفعة لي. وهناك أيضا المظهر. فقد يكون صوف الخروف كثيفاً جداً، وعندما يكون الصوف طويلاً جداً، وموحلاً بالطين، وممتلئا بالنفايات والعوالق الأخرى، فإن الخروف يكون عرضة أكثر لأن ينطرح على ظهره مثقلاً على وجه الخصوص بصوفه.

والصوف في الكتاب المقدس يصور الحياة القديمة للنفس المسيحية، فهو التعبير الظاهري الذي يعكس الوضع الداخلي، والإصرار على تحقيق رغباتي، وآمالي، وطموحاتي، وأطماعي. إنه الكيان الذي به ومن خلاله أواصل اتصالي مع العالم حولي. هنا أجد تكدس الماديات، والمقتنيات والأفكار الدنيوية التي تمثل عبئاً عليّ وتجذبني لأسفل وتقيدني.

ومن المثير أنه لم يكن يُسمح لرئيس الكهنة مطلقاً بأن يرتدي الصوف عند دخوله إلى قدس الأقداس، لما للصوف من دلالة على الذات والكبرياء، والأفضلية الشخصية، والأمور التي يرفضها الله.

فلو كنت أريد أن أسير مع الله ولا أعثر أبداً، فلا بد أن يتعامل الله بخشونة مع هذا الجانب من حياتي.

وعندما أجد خروفاً منطرحاً بسبب طول وكثافة صوفه، فإنني أتخذ على الفور خطوات سريعة لعلاج هذا الموقف. إنني أقوم ببساطة بجز الصوف كنوع من النظافة، لأمنع الخطر من أن يفقد الخروف حياته. وهذه العملية ليست بالمهمة السهلة، فالخروف لا يستمتع في الواقع بعملية جز الصوف. وهي عملية شاقة بالنسبة للراعي ولكن لا بد من القيام بها. وعندما تتم عملية الجز، يستريح كلا من الخروف والمالك. فلم يعد هناك خوف من أن ينطرح الخروف على ظهره، كما أن الخروف يشعر بمتعة التحرر من رداء حار ثقيل، فغالباً ما يكون الصوف باعثاً على الضيق بسبب ما يُثقله سواء من قاذورات النفايات، أو الوحل أو الميكروبات. فيالها من راحة في التخلص من كل هذا!.

وعلى هذا النحو في التعامل مع حياتنا القديمة، فسيأتي اليوم الذي يمسكنا فيه السيد في قبضته، ويغرس كلمته الفعالة والنافذة في قلوبنا، ربما يكون هذا العمل غير مفرح لبعض الوقت، ولا

شك أننا سوف نقاوم رافسين له. وقد تصيبنا بعض الجروح. ولكننا سنشعر براحة عظمى عندما ينتهي. ويالها من راحة! يالها من سعادة عندما نتحرر من ذواتنا! لقد استعدنا أنفسنا.

أما السبب الثالث الذي يجعل الخراف تنطرح على ظهرها هو ببساطة أنها سمينة جداً. ومن المعلوم أن الخراف التي تتجاوز وزنها، لا تكون بالضرورة الأكثر صحة والأكثر إنتاجية. وهذه السمنة تعرضها غالبا للإنطراح على ظهرها فلا يمكن لهذه الخراف السمينة جداً أن تكون رشيقة أو خفيفة الحركة، بحيث يمكنها الوقوف بسهولة على أرجلها.

وحينما يشك الراعي في أن الخراف ستصبح عرضة لهذا الموقف، فإنه يتخذ خطوات طويلة المدى لتصحيح هذا الوضع، وسيضع للخراف نظام تغذية أكثر صرامة بحيث تتغذى على قدر أقل من الحبوب، وعموماً سيكون القطيع كله تحت الملاحظة عن قرب. فهدف الراعي أن يرى خرافه قوية، منتصبة، مفعمة بالحيوية، غير هزيلة أو ضعيفة.

ونحن نواجه نفس المشكلة في الحياة المسيحية، فهناك أشخاص ربما قد أبلوا حسنا في حياتهم وفي أعمالهم وفي منازلهم، ويشعرون أنهم قد وصلوا إلى القمة وأنهم بالفعل بلغوا المنتهى، وقد يكون لديهم الإحساس بالثقة في أنفسهم، وهنا مكمن الخطورة، لأنهم يكونون أكثر الناس عرضة لأن ينبطحوا على ظهورهم.

وفي رؤيا ٣: ١٧ يحذر الله الكنيسة معلنا أنه بالرغم من أن البعض يعتبرون أنفسهم أغنياء جداً، إلا أنهم بالفعل في خطر محدق. وقد أشار الرب يسوع إلى نفس هذا الموضوع، عندما تكلم عن الغِنَي الذي قرر أن يبني مخازن أضخم وأوسع، ولكنه في الحقيقة واجه خرابا تاماً. إن الغنى المادي ليس دليلاً على التمتع بالصحة الروحية، وليس معياراً على التقوى الحقيقية. ومن الرائع بالنسبة لنا أن راعي نفوسنا يرى من خلال المظاهر الخارجية، المخاطر التي تُحدق بنا ويتخذ الخطوات ليضع الأمور في نصابها.

فهو قد يفرض علينا نوعاً من "النظام الصارم" أو "الانطباط"، وقد يكون بالنسبة لنا صعباً بعض الشيء وكريهاً في بادئ الأمر. لكن مرة أخرى نحتاج أن نؤكد لنفوسنا أن ما يقوم به هو لخيرنا لأن الله يحبنا لمجد ذاته كالراعي الصالح.

في الإصحاح الثاني عشر من الرسالة إلى العبرانيين، نقرأ عن كيف يختار الله التأديب لمن يحبهم. وقد يظهر لنا هذا، للوهلة الأولى، أنه عمل قاسٍ، ولكن الحقيقة الأعمق وراء هذا، هي أنه يمنحنا حياة من الاسترخاء والسكون، خالية من القلق والإحباط والانطراح بلا رجاء مثل الخروف الذي لا يجد عوناً.

إن الصلابة التي تتطلبها مواجهة الحياة، وتناقضاتها المريعة التي تجلبها علينا، تأتي فقط من خلال التأديب والمعاناة، والمصاعب. إن

سيدنا برحمته ومحبته، يجعل هذا الأمر جزءاً من برامجنا. إنه حصة من ثمن انتمائنا إليه.

هنا نرتاح واثقين أنه لن يطلب منا أن نواجه ما لا طاقه لنا به (كورنثوس الأولى ١٠: ١٣) لكن ما يجيزنا فيه، هو لتقوية إرادتنا ولتحصين إيماننا ولزيادة ثقتنا في توجيهه لنا. فلو كنا نؤمن أنه الراعي الصالح، فإننا نستطيع أن نرتاح واثقين أنه يعلم ما يفعله. وهذا الأمر وحده يجب أن يكون كافياً لينعشني ويرد نفسي على الدوام. إنني أعلم أن ليس ثمة ما يهدئ ويفعم حياتي الروحية، كتلك الحقيقة أن الله يعلم ما يفعله بي.

الفصل السادس

"يَهْدِينِي إِلَى سُبُلِ الْبِرِّ مِنْ أَجْلِ اسْمِهِ."

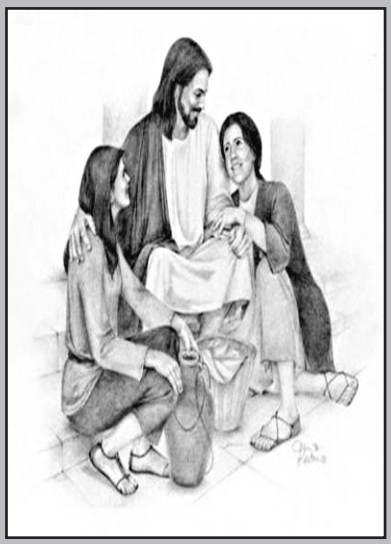

الفصل السادس

"يَهْدِينِي إِلَى سُبُلِ الْبِرِّ مِنْ أَجْلِ اسْمِهِ."

تشتهر الأغنام بأنها تتطبع بسلوكيات معينة، فإذا تُركت لأنفسها فإنها ستتبع نفس الطريق إلى أن تصبح عُشراً، وترعى في نفس المرعى إلى أن تتجه إلى الصحاري القاحلة، وتلّوث مرعاها الخاص حتى يصبح ملوثاً بالأمراض والطفيليات. فهناك الكثير من أجود الأراضي دُمّرت بما لا يمكن إصلاحه، برعي زائد عن حده، أو بإدارة ضعيفة أو بجهل أصحابها.

ويكفي أن يسافر الشخص إلى بلاد مثل أسبانيا، واليونان، وموزمبيق وشمال أفريقيا وحتى إلى مناطق بغرب الولايات المتحدة ونيوزيلندة واستراليا، فيشاهد الدمار الذي سببّته الأغنام للأرض. فبعض الأراضي في هذه البلاد كانت من قبلٍ منتجة للعديد من الخضروات، حتى أصابها الخراب شيئاً فشيئاً، وأصبحت أرضاً بوراً. فالكثير جداً من الأغنام لم تخلّف على مر السنين سوى الفقر والمآسي بسبب سوء الإدارة.

ومن الشائع، رغم كونه انطباعاً خاطئاً، أن الأغنام يمكنها أن

تتجول بعيداً في كل مكان. إن الحقيقة هي عكس ذلك تماماً. فليست هناك ماشية أخرى تحتاج إلى عناية أكثر في التعامل معها أو توجيهها مثل الأغنام. ومما لاشك فيه أن داود نفسه كراع، قد تعلم هذا الأمر من خلال خبرة صعبة وإدراك بما لا خلاف عليه، أنه إذا بدأ القطيع ينمو، وكان المالك يتمتع بسمعة طيبة كمدير متميز، فإن الأغنام ستكون ثابتة لن يطرأ عليها تغيير بفضل إدارته الدقيقة وتوجيهه.

إن أول مزرعة للأغنام قمت بشرائها، كانت عبارة عن رقعة من الأرض المهملة وقد أتت عليها الأغنام تماماً. وقام مالكها بتأجيرها لأنه كان غير متواجد. وقام الشخص الذي أستأجرها بتكديسها بالأغنام تاركاً لها العنان لكي ترعى وتتصرف على هواها وأصبحت هذه الأرض شيئاً فشيئاً جدباء لاخضرة فيها، واتجهت بعض القطعان من الأغنام الصغيرة إلى الأخاديد الكبيرة، فامتد الخراب إلى كل مكان بما لا يجدي معه إصلاحاً. كل هذا قد حدث لأنه بدلاً من توجيه الأغنام والتعامل معها بعناية، فإنها تُركت لتتصارع من أجل نفسها، وتسلك بحسب أساليبها الخاصة وبحسب عاداتها المدمّرة.

وقد أسفرت عدم المبالاة عن نتائج مدمرة، فقد التهمت الأغنام العشب بصورة مجحفة حتى أن الجذور قد أقتُلعت تماماً. وفي بعض الأماكن في جنوب أفريقيا شاهدت جذور أشجار النخيل

وقد دمرتها الأغنام بحوافرها وخلّفت وراءها خراباً هائلاً لأن هذا يعني فقدان خصوبة الأرض، ومن ثمّ تعرضها للدمار الكبير.

ونظراً لسلوكيات الأغنام وتفضيلها لمواضع معينة، فإن تلك المواضع التي تم انتهاكها بشدة، سريعاً ما تصبح موطناً لجميع أنواع الطفيليات، ويصبح القطيع كله خلال فترة قصيرة مصاباً بالجرَب وكل أنواع الديدان. وتكون المحصلة النهائية وقوع الضرر لكل من المالك والأرض، بينما تصبح الأغنام نحيفة ومريضة.

والراعي الذي يكون واعياً بكل هذا، ليس فقط من أجل تهذيب سلوكيات قطيعه، أو من أجل الحفاظ على الأرض، ولكن أيضا من أجل سمعته الخاصة كمالك للمزرعة، يجب عليه أن يتخذ الاحتياطات اللازمة للحد من التصرفات الخاطئة لهذه الحيوانات لأن مثل هذه التصرفات قد تمثل في حد ذاتها خطورة شديدة.

وإحدى الاحتياطات التي يجب أن يراعيها الراعي، هي أن يغير بصفة مستمرة مكان رعيها، وعدم تركها في نفس الأرض لفترة طويلة. يجب أن يتم نقل الخراف بصفة دورية من مرعى إلى آخر، فهذا الأمر يحول دون تدمير العشب نتيجة الرعي المستمر دون ضوابط، وأيضاً يمنع القطعان الصغيرة من الاتجاه نحو الأخاديد، كما يحول دون إصابة الأغنام بالطفيليات والأمراض.

وباختصار، لابد من وجود خطة مسبقة ومحكمة ومدروسة

للعمل بها بصفة دورية، بحيث يتم نقل المراعي من مكان لآخر على التوالي، بناء على أسس سليمة من خلال إدارة متميزة. وهذا ما كان في ذهن داود عندما تكلّم عن هدايته إلى سبل البر. ففي تلك الخطة يكمن سر صحة كلاً من القطيع والأرض، وهذا هو المدخل لرعاية الخراف على أسس سليمة ومحددة. وتتوقف سمعة المالك على كيفية توجيه نفقاته بكفاءة وفاعلية لتوفير علف على قدر كبير من الفائدة. وهذا الأمر كان الطابع الغالب على كل قراراتي. فلم يكن يمضي يوم إلا وكنت أتمشى عبر المراعي حيث تتغذى أغنامي، وأقوم بعملية موازنة بين نموها وكمية الاستهلاك. وعندما أشعر بعدم تحقيق المستوى الأمثل فإنني كنت أقوم بنقل الأغنام إلى مرعى جديد، وهذا يعني أنني كنت أنقلها كل أسبوع تقريباً. وقد حققت نجاحاً كبيراً في تربية الأغنام، ويرجع الفضل في ذلك إلى توجيه قطيعي، وإلى العناية الكبيرة التي كنت أوليها له.

وينطبق هذا أيضاً على قطعان الخراف التي ترعى طوال الصيف، ويسوقها رعاة متجولون، فهم يقودون خرافهم بكل صبر إلى مرعى جديد كل يوم تقريباً. وبعضهم يقيمون معسكراً رئيسياً وينتشرون منه إلى مناطق جديدة للرعي محيطة بالمعسكر ثم يعودون إلى معسكرهم ليلاً.

ولابد للراعي أن تكون لديه معرفة كاملة لمراعيه، وأن يتجول

عبر الأرض مرة بعد أخرى لكي يلم بكل ميزة وكل مشكلة فيها. ينبغي أن يكون عالماً بالأماكن الصالحة للرعي والتي ينمو عليها قطيعه، وأيضاً الأماكن السيئة التي لا تصلح لتغذية قطيعه فلا يذهب إليها.

جدير بالذكر، أن الراعي عندما يفتح بوابة مرعى حديث، فإن الخراف تندفع داخله وهي فرحة، حتى أن النعاج المتقدمة في السن الهادئة، غالباً ما تدب بحوافرها وتثب مبتهجة لأنها ستحصل على غذاء طازج. والراعي أيضا يشعر بسعادة بالغة وهو يقود قطيعه إلى أرض جديدة.

وحينما نتحول إلى العنصر الإنساني في هذا الفصل، سنشعر بالدهشة لوجود بعض التشابهات. فكما ذكرنا آنفاً، إن تسمية الله لنا بالخراف ليست من قبيل الصدفة، فنمط سلوكنا وعادات حياتنا تتشابه كثيراً مع ما للخراف.

فالكتاب المقدس يشير إلى أن معظمنا يتسم بغلاظه الرقبة، فنحن نفضل أن نتبع ميولنا ونلتفت إلى وسائلنا الخاصة **"كُلُّنَا كَغَنَم ضَلَلْنَا. مِلْنَا كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى طَرِيقِهِ وَالرَّبُّ وَضَعَ عَلَيْهِ إِثْمَ جَمِيعِنَا."** **(إشعياء٥٣ : ٦)** وهذا ما نفعله مراراً وتكراراً رغم أنه يسبب لنا أضراراً. فلدينا نزعة لتدمير وجودنا البشري وتعريض مصيرنا الأبدي للخطر ... فهذا الأمر يشجع على الكبرياء، فإننا نصر على أننا نعلم ما هو الأفضل لنا رغم المآسي التي قد نجنيها،

والتي تبرهن بوضوح على الضرر الذي يلم بنا نتيجة كبريائنا والانسياق خلف إرادتنا.

وكما أن الخراف تتبع، بلا بصيرة وبحماقة كعادتها، نفس القطعان القليلة الأخرى، حتى يصبح روتينهم اليومي هو النبش في الأخاديد المتسعة، كذلك نحن أيضاً، فإننا نتعلّق بالعادات التي شاهدنا فيها فساد حياة الآخرين.

إن الالتفات إلى طريقي الخاص، يعني ببساطة أنني أنفذ ما أريده، انطلاقاً من إحساس بأنني حر، فأحقق رغباتي الخاصة وأضع أفكاري موضع التنفيذ. وأنا أفعل ذلك رغم كل التحذيرات.

ففي سفر الأمثال ١٤: ١٢، ١٦: ٢٥ نقرأ: "توجد طريق تظهر للإنسان مستقيمة وعاقبتها طرق الموت".

وكل هذا يناقض ما جاء به السيد المسيح الراعي الصالح وقاله بكل لطف **"قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ. لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى الآبِ إِلاَّ بِي."** **(يوحنا ١٤: ٦)**

"وَأَمَّا أَنَا فَقَدْ أَتَيْتُ لِتَكُونَ لَهُمْ حَيَاةٌ وَلِيَكُونَ لَهُمْ أَفْضَلُ."
(يوحنا ١٠: ١٠)

والصعوبة في هذا الأمر أن معظمنا لا يريد أن يأتي، ولا يريد أن يتبع، ولا يريد أن يهتدي إلى سبل البر، فنحن نفضل أن نتبع

أسلوبنا الخاص رغم أنه قد يسبب لنا كثيراً من المتاعب.

إن الخروف العنيد، المنساق خلف مشيئته، المتكبر، المكتفي بذاته، والذي يحرص على السلوك في طريقه القديم، والرعي في الأرض الملوثة، سينتهي به الحال إلى أن يصبح عظاماً داخل جوال ملقى في أرض خربة. والعالم الذي نحيا فيه مليء بمثل هذه الفئات. فكم من بيوت محطمة، وقلوب منكسرة، وأشخاص مشردين، وشخصيات ملتوية لأناس سلكوا وفقاً لأساليبهم الخاصة. نحن في وسط مجتمع مريض يحيا في صراع للبقاء في أرض مليئة بالشر. إن طمع جنس البشر وأنانيته يخلفان وراءهما ميراثاً من الدمار والندم.

إن الخروف العنيد، المنساق خلف مشيئته، المتكبر، المكتفي بذاته، والذي يحرص على السلوك في طريقه القديم، والرعي في الأرض الملوثة، سينتهي به الحال إلى أن يصبح عظاماً داخل جوال ملقى في أرض خربة.

ووسط كل هذه الفوضى والارتباك، يقول لنا الرب يسوع الراعي الصالح **"مَنْ أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ وَرَائِي فَلْيُنْكِرْ نَفْسَهُ وَيَحْمِلْ صَلِيبَهُ وَيَتْبَعْنِي."** (مرقس ٨: ٣٤) ولكن معظمنا كمسيحيين لا يريد أن يفعلَ هذا، فنحن لا نريد أن ننكر أنفسنا أو نتخلى

عن حقنا في اتخاذ القرارات، لا نريد أن نتبع أو أن يقودنا أحد. بالطبع فإن معظمنا سينكر هذا الأمر، ويصرّ بأننا منقادون بأمر الرب، ونحن مصممون على أن نتبعه حيثما يقودنا، وترانيمنا تتضمن هذا. ولكن المعنيين بالفعل بالإنقياد لأمر الرب هم قليلون جداً.

وهذه هي النقطة الفاصلة التي عندها إما أن "يواصل" المسيحي مسيرته مع الله أو أنه يتراجع عن تبعيته. فهناك العديد من المسيحيين اللامبالين والمعاندين، لا يمكن تصنيفهم فعلياً كتابعين للرب يسوع. هناك أيضا تلاميذ مجاهدون لديهم استعداد بأن يتركوا كل شيء ويتبعوا السيد. إن تبعية الرب يسوع تستلزم سلوكاً جديداً متكاملاً، فهي ليست الأسلوب المعتاد الذي يحيا عليه الناس. إن الحياة مع المسيح تتطلب إنكار الذات وحمل الصليب، وهذا الأمر لا يقبله معظم الناس.

والخلاصة أنه يجب انتهاج سبعة مواقف حديثة، وهي خطوات تدفعنا للأمام في الأرض الجديدة مع الله. وعندما نسلك بموجبها سنكتشف مراع منعشة جديدة، وحياة تتسم بالوفرة فضلاً عن القداسة والأمانً مع الله. وليس ثمة أمرٍ آخر يسعد الله ويحقق لنا فائدة عظيمة لحياتنا وحياة الآخرين.

١. بدلاً من أن أحب نفسي كثيراً، فإنني على استعداد أن أوجه كل حبي للمسيح، وأن أحب الآخرين أكثر من نفسي.

إن الحب ليس مجرد عاطفة رومانسية قوية، إنه فعل متأني نابع عن إرادتي. وهو يعني أنني على استعداد أن أبذل حياتي، وأضحي بنفسي، وأبذل ذاتي عوضاً عن آخر.

وهذا بالتحديد ما فعله الله معنا بالمسيح **"بِهَذَا قَدْ عَرَفْنَا الْمَحَبَّةَ: أَنَّ ذَاكَ وَضَعَ نَفْسَهُ لأَجْلِنَا، فَنَحْنُ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَضَعَ نُفُوسَنَا لأَجْلِ الإِخْوَةِ." (يوحنا الأولى ٣: ١٦)** ففي اللحظة التي أقوم فيها بعمل شيء محدد ومكلّف سواء لله أو للآخرين، فإنني بذلك أعبّر عن الحب. فالحب هو "عدم الأنانية" أو "بذل الذات" ومعظمنا يدرك القليل جداً عن مثل هذه الحياة، ولكن ما أن يكتشف الشخص بهجة القيام بعمل ما من أجل الآخرين. فإنه يكون قد بدأ بالفعل الدخول من خلال البوابة منقاداً إلى واحدة من مراعي الله الخضراء.

٢. بدلاً من أكون واحداً من الجمع، فإنني على استعداد أن أُفرز بمفردي بمعزل عن الجماعة. إن معظمنا، مثل الخروف نرغب في الانتماء، ونميل أن نكون في جماعة ولا نريد أن نكون مختلفين بطريقة واضحة، رغم أننا قد نرغب في أن نكون مختلفين في تفاصيل ثانوية تعمل على تضخيم الذات أو الأنا.

ولكن الرب يسوع أشار إلى أن قليلين فقط هم الذين يجدون طريقه، فلكي تكون واحداً من خاصته، يجب أن تتحمل قدراً معيناً من الانتقاد والسخرية من مجتمع يتسم بالتهكم. وإننا لا نريد أن نكون، كما كان هو، رجل أوجاع ومختبر الحزن، وبدلاً من توجيه الأسى والحزن بعيداً عنا إلى المجتمع، فقد يتطلب الأمر أن نحمل بعضاً من أثقال الآخرين والاشتراك في معاناتهم. فهل نحن مهيئون لذلك؟

٣. بدلاً من التمسك بحقوقي، فإنني على استعداد للتنازل عنها لصالح الآخرين. وهذا ما يعنيه السيد بالضبط بإنكار الشخص لذاته. فليس من السهل أومن المعتاد، أومن الطبيعي أن نفعل هذا. وحتى داخل بيوتنا فإن الإصرار والتمسك الشديد بالحقوق الشخصية يكون واضحاً جداً.

ولكن الشخص الذي يكون على استعداد، أن يحط من كبريائه، ويتخذ الموضع الأخير، ويقوم بدور ثانوي دون أن يشعر بأنه منبوذ، فإنه يكون قد خطا خطوات كثيرة في أرض الله الجديدة. فالشخص هنا ينطلق من "ذاته" ويتحرر من قيود كبريائه، ولذا فمن الصعب أن يشعر بالإساءة أو بالضيق ولا يصاب بصغر النفس. فمثل هؤلاء الناس، تكون لديهم وجهة نظر صحيحة خالية من مشغولية البال وتمتليء حياتهم المسيحية بالفرح والقناعة.

٤. بدلاً من كوني "رأساً" فإنني على استعداد أن أكون في القاع... أو بلغة الخراف فبدلاً من أكون "خروف المقدمة" فإنني على استعداد أن أكون "خروف المؤخرة" فعندما تتحول الرغبة في التمسك بالذات والكبرياء إلى الرغبة في إسعاد الله والآخرين، فسوف يتلاشى من حياتنا اليومية التذمر والتوتر. والشخص الذي يكون مستعداً لأن يسلم أموره الخاصة بين يدي الرب لكي يديرها ويوجهها هو، فإنه يجد الراحة كل يوم في حقول منعشة.

٥. بدلاً من التفتيش على خطأ ما في حياتي، وأتساءل دائماً "لماذا"؟ فإنني على استعداد لأن أتقبل بشكر كل ظروف الحياة.

فالنفس البشرية كعادتها، تميل إلى أن تسأل عن أسباب كل ما يحدث لها، وهكذا تصبح الحياة نفسها عبارة عن سلسلة من الانتقادات والتحليلات لظروف الشخص ومعارفه. فنحن ننظر إلى شخص ما أو شيء ما، ونوجه له اللوم أو سوء الحظ، وسرعان ما ننسى البركات التي حصلنا عليها بينما نأخذ وقتاً طويلاً لنسيان سوء حظنا.

ولكن لو كان الشخص يعتقد حقاً أن كل أموره هي في يد الله، فسيدرك أن كل حادثة سواء كانت مفرحة أو محزنة، هي جزء من خطة الله في حياته، ويدرك بلا شك أن الله يعمل من أجل رفاهيته ويقوده إلى السلام والهدوء والقوة في كل موقف.

٦. **بدلاً من التمسك بإرادتي والإصرار على هذا الأمر، فإنني أتعلم أن أتجاوب مع إرادته وأنفذ رغباته.** ويجب أن أنوه إلى أن جميع الخطوات المذكورة هنا، تتوقف على الإرادة. وقد أشار القديسون في العصور الأولى إلى ذلك الأمر، فلكي أكون تابعاً حقيقياً وتلميذاً مكرساً، يجب أن تكون لديّ الإرادة لتنفيذ هذا.

وعندما ينسحق كل شخص ويتجاهل الأنا المتعاظمة لديه، فإنه يكون أهلاً لقبول الصليب في حياته، وهذا ما يعنيه حمل الصليب كل يوم، أن أذهب للموت عوضاً عن آخر، وفي كل أمر أعمل مشيئته لا مشيئتي.

٧. **بدلاً من اختيار طريقي، فإنني على استعداد أن أتبع طريق المسيح.** أي أن أفعل ما يطلبه مني. وهذا يعني ببساطة الطاعة الكاملة في كل شيء، أمضي حينما يدعوني للذهاب، أتكلم بما يمليه عليّ، أتصرف على النحو الذي يريده. فمعظمنا لديهم قدر هائل من المعرفة الحقيقية لما ينتظره الرب منا. وهناك عدد قليل جداً لديهم الإرادة أو النية أو التصميم للتصرّف بما يتفق مع أوامره. ولكن الشخص الذي يقرر أن يفعل ما يريده الله، فقد انتقل إلى أرض منعشة تفيض بالخيرات.

إن الله يريدنا جميعاً أن نتحرك معه. إنه لا يريد لنا الرفاهية فقط، ولكن أيضا المنفعة للآخرين لمجد اسمه.

ربما هناك من يعتقدون أنه ينتظر الكثير منا. وربما يشعرون بأن مطالبه قاسية جداً، وربما هناك من يعتبرون أن دعوته يستحيل تنفيذها.

فلو توافرت لدينا العزيمة وضبط النفس سنحقق النجاح، ولو كنا جادين في طلب مشيئته ونجعله يقودنا، فإنه سيجعل هذا الأمر ممكناً بواسطة روحه المعزي الذي يحل على كل من يطيعه.

(أعمال الرسل ٥: ٣٢) "وَنَحْنُ شُهُودٌ لَهُ بِهَذِهِ الأُمُورِ وَالرُّوحُ الْقُدُسُ أَيْضاً الَّذِي أَعْطَاهُ اللهُ لِلَّذِينَ يُطِيعُونَهُ»."

"لأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَامِلُ فِيكُمْ أَنْ تُرِيدُوا وَأَنْ تَعْمَلُوا مِنْ أَجْلِ الْمَسَرَّةِ." (فيلبي ٢: ١٣)

الفصل السابع

" إِذَا سِرْتَ فِيْ الوَادِي..... "

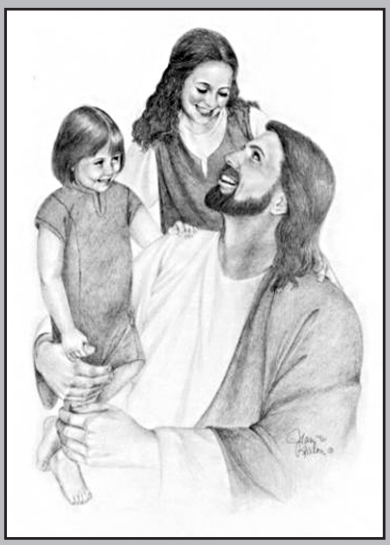

الفصل السابع

"إِذَا سِرْتُ فِي الوَادِي....."

من وجهة نظر الراعي، فإن هذه العبارة تعبّر عن مرحلة منتصف الطريق في هذا المزمور. وعند هذه النقطة، تتعالى أصوات الخراف وتتباهى، في مواجهة الخراف الأخرى الواقفة خلف السياج، بالعناية الفائقة التي قدمها لهم المالك في المزرعة طوال فصلي الشتاء والربيع.

لقد حان الوقت لكي تخاطب الراعي مباشرة. فالحديث هنا يتضمن ضمائر شخصية "أنا" و"أنت"، فيصبح الحديث أكثر وداً يعكس عاطفة عميقة.

وهذا طبيعي وعادي. فالرحلات الطويلة في المناطق العالية بمراعيها الصيفية تبدأ هنا، تاركة خلفها الأغنام المهملة على الجانب الآخر من السياج الفاصلة. إن الراعي يعرف عن تلال المنطقة، والمروج الخضراء على الجبال التي ستذهب إليها أغنامه، فالقطيع سيمضي هذا الصيف مستمتعاً فيه برفقة حميمة، وعناية شخصية خاصة من الراعي الصالح.

ففي هذا الوقت من العام، تُمارس في هذا الفصل عادات مشتركة في كل من فلسطين ومزارع الغرب. إن معظم الرعاة الأكفاء يسوقون قطعانهم للرعي بعيداً طوال فترة الصيف، وهذا يعني أن يقطعوا مسافات طويلة، والأغنام تتحرك ببطء وتتغذى أثناء سيرها وهي تتجه نحو المرتفعات الجبلية، تاركة خلفها الجليد الذي أوشك أن يذوب، وعندما يوشك الصيف على نهايته، فإن الأغنام تكون قد تغذّت جيداً على مروج الجبال البعيدة.

وباقتراب فصل الخريف، يتكون الجليد مبكراً على أعلى قمم الجبال، فيصبح القطيع مجبراً على الإنسحاب والتقهقر إلى مستويات أقل إرتفاعاً. وأخيراً عندما يوشك العام على الانتهاء، يقود الراعي الأغنام إلى موطنها حيث تقضي فصل الشتاء. وهذا هو مجمل النشاط على مدار العام الموصوف في النصف الأخير من هذا المزمور.

ففي هذا الوقت يكون القطيع منفرداً تماماً مع الراعي، وفي اتصال حميم معه، وتحت أكبر قدر من رعايته ليلاً ونهاراً. ولهذا فإن الآيات الأخيرة تمت صياغتها بتلك اللهجة الشخصية والحميمة. ومن الجيد أن نتذكر أن كل هذه الأمور تمت على أساس خلفية مجسّمة من الجبال البرية والأنهار المتدفقة ومناطق الرعي المرتفعة.

ولقد علم داود المرنم، هذا الأمر من خبراته الأولية. فعندما

أرسل الله صموئيل لكي يمسحه ملكاً على إسرائيل، لم يكن داود بالمنزل مع إخوته في المزرعة الملحقة بالبيت، لكنه كان يرعى قطيع أبيه في التلال العالية. وكان لابد أن يرسلوا إليه ليعود إلى المنزل.

ومن ثم فلا عجب أن يكتب بمثل هذا الوضوح والإيجاز عن العلاقة بين الخراف ومالكها. لقد أدرك من خبرته الأولية كل المصاعب والمخاطر وأيضا الأفراح التي تسبّبها الرحلات الطويلة في المناطق العالية. لقد كان يذهب مع أغنامه مرة بعد مرة إلى مناطق الرعي .

لقد كان يدرك القسوة رغم روعة المنطقة. ولم يسق قطيعه إلى مكان لم تطأه قدماه من قبل. لقد كان يذهب دائماً ليتعرّف جيداً على المنطقة.

كان يعرف جميع المخاطر الناتجة عن الأنهار التي تمتليء فتتسبب في فيضانات عارمة، وعن الكتل الثلجية المتدحرجة، والصخور المنزلقة، والنباتات السامة، والحيوانات المفترسة التي تداهم القطيع، والعواصف الرعدية وما ينتج عنها من أمطار ثلجية وصقيع. كل هذه الأمور أصبحت مألوفة لديه فلقد تولى رعاية أغنامه تحت هذه الظروف القاسية، لن يُفاجأ بأمر ما. لقد كان مستعداً تماماً لحماية قطيعه وتسديد متطلباته تحت أي ظرف.

كل هذا موصوفٌ بروعة وبأسلوب بسيط في الآيات الأخيرة.

ومن هنا كانت العظمة والهدوء واليقين مما يجعل النفس تشعر بالراحة "فلا أخاف لأنك معي..." معي في كل موقف، وفي قسوة كل تجربة، وفي كل خيبة أمل وإحباط، وفي كل ورطة مؤلمة.

نحن نتحدث كثيراً في الحياة المسيحية عن رغبتنا في "الانتقال إلى مستوى أعلى مع الرب" ولكننا نميل بالأكثر للعيش على المنخفضات في حياتنا. نريد أن نكون خلف الجموع، ولكي ندخل في علاقة حميمة مع الله نتكلم عن اختبارات القمم العالية، ونحسد الذين صعدوا إلى المرتفعات، ووصلوا إلى مكانة سامية في الحياة.

وكثيراً ما يكون لدينا فكر خاطيء عن كيفية حدوث ذلك، فرغم تخيلنا أننا "نسبح في الهواء" للوصول إلى مرتفعات أعلى، فإن الوضع لا يكون هكذا على أرض الواقع في الحياة المسيحية. وكما يحدث مع الخراف، كذلك يحدث أيضاً مع شعب الله، فلن يستطيع أحد أن يصعد إلى أرض أعلى إلا من خلال الوديان. فكل جبل له وديان، وتتميز جوانبه بأنها صخرية شديدة الانحدار، وتطل على وديان ضيقة، وأفضل طريق للوصول إلى القمة، غالباً ما يكون من خلال هذه الوديان.

وكل راعٍ لديه خبرة بالمناطق العالية، يعرف هذا الأمر فهو يقود قطيعه برفق، ولكن بمثابرة في الممرات المرتفعة عبر الوديان المظلمة، ويجب أن نلاحظ أن الآية تقول "إذا سرت في وادي ظل الموت"، ولا تقول "إنني أموت هناك، أو أتوقف هناك لكن إذا سرت في..."

نحن عادة ما نستخدم هذه الآية لتعزية هؤلاء الذين يسيرون في وادي الموت المظلم. ولكن بالنسبة لأولاد الله لن يكون الموت هو النهاية بالنسبة لهم، إنما مجرد بوابة لحياة أكثر سمواً ورفعة، تتميز بصلة حميمة مع المسيح. فالموت ما هو إلا الوادي المظلم الذي ينفتح على بهجة أبدية مع الرب، إنه ليس شيئاً نخاف منه، ولكنه اختبار نعبر من خلاله إلى حياة أفضل.

والراعي الصالح يعلم هذا. وهذا هو أحد الأسباب التي من أجلها قال لنا. "ها أنا معكم كل الأيام..." معنا حتى في وادي الموت. يالها من تعزية وبهجة لقد اختبرت هذه التعزية عندما ذهبت زوجتي إلى "المكان الأعلى". لقد كنا نسير معاً عبر وادي الموت المظلم طوال سنتين، وكنت أشاهد قوامها الرائع يقضي عليه مرض السرطان، وعندما اقتربت من الموت، كنت أجلس بجوار فراشها ويدها في يدي "واجتزنا" بتؤدة وتعزية وادي الموت. كان كل منا يلمس حضور المسيح، لم يكن هناك خوف بل انطلاق إلى "مكان أسمى"

وبالنسبة لنا نحن الأحياء على هذه الأرض، مازالت هناك وديان نسلكها خلال أيامنا الباقية، ولا يجب أن تكون هذه الوديان طرقاً "تنتهي بالموت"، فخيبة الأمل، والإحباط، والظلمة، والأيام الصعبة رغم كونها وديانا تسودها الظلال، إلا أنه يجب ألا تمثل بالنسبة لنا كوارث، لكنها قد تكون السبيل للوصول إلى أرض أسمى في مسيرتنا مع الرب.

وعندما نفكر في ذلك الأمر للحظات، فإننا ندرك أن الطرق السريعة التي تُعبَّد حديثاً على الجبال، تمر عبر وديان تعترضها للوصول إلى قمم تلك الجبال، وهكذا طرق الرب تقودنا إلى العلاء عبر وديان حياتنا.

وأُذكّر نفسي مرة بعد مرة "يارب كم يبدو هذا الأمر قاسياً، ولكنني أدرك حقاً أنه سيكون في النهاية الطريق الأسهل والمبهج الذي ستنقلني منه إلى أرض أسمى" وعندما أقدّم له الشكر على كل الأمور الصعبة والليالي المظلمة فإنني أكتشف أنه كان معي في وسط ضيقاتي. وعندما أدرك هذه الحقيقة تتحول مخاوفي وشكوكي إلى الأفضل لأنه معي في الوادي ولأن كل الأشياء تخضع لسلطانه.

هناك سبب ثانٍ لقيادة الأغنام إلى قمم الجبال عبر الوديان. لأن هذا الطريق هو الطريق الأمثل لإرواء عطشهم فهنا يجد الشخص مياهاً منعشة على طوال الطريق، هناك مجاري للحياة وينابيع وآبار في عمق ممرات الجبل. فالرحلات الطويلة خلال أشهر الصيف تكون حارة ومرهقة، وتكابد القطعان عطشاً شديداً، ولذلك فإنها تشعر بسعادة بالغة حينما يتم إطفاء عطشها بالمياه الباردة المنعشة.

أتذكر في إحدى السنوات عندما كان هناك قطيع كبير يفوق ١٠,٠٠٠ من الأغنام يمر عبر قريتنا في طريقه إلى مكان رعيهم

الصيفي. فأقبل أصحابه يلتمسون الإذن ليسقوا قطيعهم من النهر المجاور لمزرعتنا. واندفعت الأغنام إلى حافة النهر لتطفئ لهيب عطشها في هذا الجو المشمس الحارق. وقد شعرنا بسعادة كبيرة ونحن نرى الأغنام ترتوي من مياهنا.

وسنكتشف كمؤمنين إن آجلاً أو عاجلاً أننا سنجد في أودية حياتنا الانتعاش من الرب نفسه، ولن يتحقق هذا، إن لم نسر معه خلال المتاعب الشديدة جداً، والتي من خلالها نكتشف أنه يستطيع قيادتنا إلى أن نجد انتعاشنا الكامل معه في وسط الضيقة. وستفيض قلوبنا بما يعجز عنه الكلام، عندما تمتليء نفوسنا وأرواحنا بالبهجة من خلال روحه القدوس المعزي.

إنني لا أستطيع أن أصف القوة والعزاء والصفاء الذي تسلل إلى كياني خلال فترة مرض زوجتي. وقد انعكس هذا الأمر على ملامح وجهي طوال الوقت في حضور روح الله القدوس المعزي نفسه.

لقد كنت أجتاز هذه الأودية. ولن يصدق أحد هذا الأمر، إن لم يكن قد اختبره من قبل. ففي الواقع هناك كثيرون جداً يعترفون بأن ليس لديهم القدرة على مواجهة مثل هذه المواقف. ولكن الشخص الذي يسير مع الرب عبر هذه الأودية، يتمتع بمثل هذا الانتعاش الحقيقي. ونتيجة لهذا، فإن الذين اجتازوا مثل هذه المواقف، تكون لديهم القدرة أن يعزوا ويريحوا ويشجعوا الآخرين في المواقف المماثلة. ونحن كثيراً ما نصلي ونرنم ملتمسين

من الله أن يجعلنا عزاءً وتشجيعاً للآخرين. نريد أن نكون نهراً متدفقاً بالبركات في حياة الآخرين. وكما أن المياه تتدفق في قناة أو نهر أو في الوادي، فكذلك أيضا في الحياة المسيحية، تتدفق النعمة خلال الأودية التي حفرتها التجارب الملتهبة في حياتنا. فأفضل شخص يستطيع أن يعزي ويريح شخصاً آخر في فجيعته، هو الشخص الذي فقد محبوباً عزيزاً لديه، وأفضل شخص يستطيع أن يهوِّن من الآم منكسر القلب هو الشخص الذي اختبر القلب المنكسر.

"مُبَارَكٌ اللهُ أَبُو رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، أَبُو الرَّأْفَةِ وَإِلَهُ كُلِّ تَعْزِيَةٍ، الَّذِي يُعَزِّينَا فِي كُلِّ ضِيقَتِنَا، حَتَّى نَسْتَطِيعَ أَنْ نُعَزِّيَ الَّذِينَ هُمْ فِي كُلِّ ضِيقَةٍ بِالتَّعْزِيَةِ الَّتِي نَتَعَزَّى نَحْنُ بِهَا مِنَ اللهِ. لأَنَّهُ كَمَا تَكْثُرُ آلاَمُ الْمَسِيحِ فِينَا، كَذلِكَ بِالْمَسِيحِ تَكْثُرُ تَعْزِيَتُنَا أَيْضاً."
(كورنثوس الثانية ١:٣-٥)

إن معظمنا لا يريدون ودياناً في حياتهم، ويبتعدون عنها بسبب الخوف والنذير الشؤم، ولكنهم لا يدركون أن الله يستطيع أن يحقق فائدة عظيمة، ويمنح بركات عظيمة من خلال هذه الوديان. دعونا لا نتجنب دائماً الأمور المظلمة والأيام العصيبة، فإنها قد

تبرهن على أنها الطريق لتحقيق انتعاش عظيم في حياتنا وفي حياة الآخرين حولنا.

هناك سبب ثالث لقيادة الأغنام إلى المرتفعات العالية عبر الأودية، لأنه غالباً ما يتميز هذا الطريق بوفرة الغذاء وبأفضل العلف.

فالقطيع ينتقل ببطء، فليس ثمة حاجة للإسراع. هناك حملان مع القطيع لم يسبق لها أن سلكت هذا الطريق. والراعي يريد لقطيعه لا أن يحصل فقط على المياه بل أيضاً على أفضل أماكن للرعي. وعموما فإن أفضل المراعي موجودة في تلك الوديان على امتداد ضفاف مجاري المياه. وهكذا يستطيع القطيع أن يتغذى وهو يتجه نحو المرتفعات. ومن الطبيعي أن توجد هذه الأراضي المشبعة بأدنى قاع الوديان، وغالباً ما تكون منحدرة بشدة كما أنها ضيقة وعميقة، وقد تعلوها التلال العالية تحيط بها من كل جانب، وقد تخيم على قاع الوادي نفسه ظلال قاتمة، ونادراً ما تشرق فيها الشمس فيما خلا ساعات قليلة عند الظهيرة.

ويدرك الراعي من خلال خبراته السابقة، أن الحيوانات المفترسة كذئاب الجبال والدببة والفهود قد تكون مختبأة داخل تجاويف تلك المنحدرات، وهي تتربص بالقطيع كما أنه يدرك أيضا أن تلك الوديان قد تتعرض لعواصف مفاجئة، ولفيضانات مباغتة قد تتحول إلى سيول غامرة أسفل المنحدر، وأيضا قد يحدث تساقط للصخور أو إنهيار للكتل الثلجية، ولكن رغم هذه المخاطر، فإنه يدرك أيضاً أن هذا هو الطريق الأمثل لقيادة قطيعه

نحو المرتفعات، وهو لا يدّخر جهداً في سبيل أن يجنب قطيعه من التعرض لأي خطر قد يطرأ.

ومن أسوأ الأشياء التي قد يتعرض لها القطيع، العواصف الثلجية، والكتل الثلجية التي تنزلق من الجبل إلى أسفل الوادي. فإذا هطلت الأمطار الثلجية، وأحاطت الثلوج بالقطيع، فإن هذا الأمر سيودي بحياتها خلال فترة قصيرة جداً، لأن الأغنام حيوانات رقيقة الجلد، وحساسة جداً ضد أعراض البرد، ومن السهل أن تُصاب بالالتهاب الرئوي، ومضاعفات أمراض الجهاز التنفسي الأخرى.

أتذكّر أنني تعرضت ذات مرة لعاصفة هبت بأسفل تلال أحد الجبال في بداية فصل الصيف. كان الصباح مشرقاً وصافياً، وفجأة عند الظهيرة تلبدت السماء بالغيوم الداكنة وكانت هناك رياح ثلجية تصاحب هذه العاصفة، ثم بدأت تنهمر سيول الأمطار الثلجية عبر الوادي، وقد ركضت سريعاً للإحتماء بمجموعة من الأشجار. وقد سادجو من البرودة الشديدة على قريتنا كلها. وخلال وقت قصير، تحولت جميع منحدرات الجبال إلى أرض جليدية، واستشعرت الأغنام بالخطر القادم عليها نتيجة هذه العاصفة، فأسرعت لتحتمي في تجاويف الجبال عند طرق الوادي، ولولا هذا، لكان القطيع كله قد هلك.

لكن في هذه الوديان، كان ينمو أفضل العشب، وكان هذا هو الطريق إلى المروج الخضراء المرتفعة. إن راعينا يدرك كل هذا

وهو يقودنا معه عبر الوديان، إنه يعلم أين نجد القوة، والمساندة، والرعي الجيد رغم كل تهديد يواجهنا.

إن هذه الخبرة تزيد من ثقة أولاد الله وتصقلها، ليكتشفوا أنه حتى في الوادي المظلم، هناك مصدر إلهي للقوة والشجاعة، وعندما يتفحصون ماضي حياتهم، يرون كيف كانت يد الراعي تساندهم وتوجههم في أحلك الساعات، وعندئذ يتجدد إيمانهم.

لست أعلم شيئاً يمكنه أن يثبتّ إيماني وثقتي في أبي السماوي سوى النظر إلى ماضي حياتي، فأرى وقوفه معي في كل أزمة، وكل ظرف قهري تعرضت له. لقد برهن مراراً وتكراراً على عنايته واهتمامه بتهذيبي. وكنت أدرك مرة بعد أخرى توجيه الراعي الصالح لحياتي خلال الأيام المظلمة وفي الوديان السحيقة.

وكل هذا يزيد ثقتي في المسيح. إن كل هذه الأمور الصعبة تمنحني القدرة والتحمل في أعماق كياني، لأنه كان يقودني فيها دون أن يعتريني خوف، وهو يستطيع أن يفعل هذا في كل مرة. ليكن ما يكون، فقد تجتاحني العواصف، وقد تهاجمني الحيوانات المفترسة، وقد تغمرني السيول الغامرة، لكنني لا أخاف لأنه معي في كل المواقف. لكي أعيش هذه الحياة، يجب أن أصعد معه في رحلة طويلة إلى الجبال العالية من القداسة والهدوء والحياة الصحيحة مع الله.

والمؤمن الذي تعلّم أن يحيا بهذه الطريقة، يستطيع أن يشجع

الضعفاء من حوله، فالكثير منا يرتعش أو يخاف، ويرتعد بسبب عواصف الحياة. إننا نضع ثقتنا في المسيح ولكن عندما يعترضنا أول ظل قاتم في الطريق الذي نسلكه، يخيم علينا الحزن ونسقط في هوة عميقة من اليأس، وقد نشعر أحياناً بأننا نهوى حتى الموت. لا يجب أن نكون هكذا.لكن المؤمن الذي لديه ثقة كاملة في المسيح، وتيقن أن الرب معه في الضيق، ويسير عبر وديان الحياة المظلمة دون خوف منتصب الرأس، يصبح برجاً حصيناً ومصدر تشجيع لإخوته.

نعم، ستكون هناك وديان في حياة كل منا كما أكد لنا الراعي الصالح أنه **"فِي الْعَالَمِ سَيَكُونُ لَكُمْ ضِيقٌ وَلَكِنْ ثِقُوا: أَنَا قَدْ غَلَبْتُ الْعَالَمَ"**. **(يوحنا ١٦: ٣٣)**

والسؤال الأساسي هنا لا يختص بما إذا كان أمامنا وديان كثيرة أو قليلة، أو إذا كانت تلك الوديان مظلمة وتغطيها الظلال، لكن السؤال هو، كيف أتجاوب معها؟ كيف أسلك خلالها؟ كيف أتعامل مع الكوارث التي تعترض طريقي؟

الإجابة ببساطة هي، أن أواجهها بهدوء المسيح.

إنني أدرك تماماً أنه من خلال هذه الوديان، أستطيع السفر إلى أرض أسمى وأعلى مع الرب. وبهذه الطريقة، لن أحصل فقط على البركة، بل سأكون أيضا بركة للآخرين من حولي، الذين يحيون في خوف.

الفصل الثامن

"عَصَاكَ وَعُكَّازُكَ هُمَا يُعَزِّيَانِنِي"

الفصل الثامن

"عَصَاكَ وَعُكَّازُكَ هُمَا يُعَزِّيَانِنِي"

عادة ما يحمل الراعي بعض الأدوات عندما يكون بالحقل مع قطيعه. وكان هذا الأمر ضرورياً خصوصاً في القديم، حيث لم تكن تتوفر للراعي الآلات الميكانيكية ينقل بها متطلبات المعسكر عبر الأراضي الريفية الوعرة. وحتى في أيامنا الحاضرة يطلقون عليها "أكواخ الراعي" أو "المطابخ"، وكان الراعي يقضي بها صيفه وهو منعزل مع أغنامه، وكانت مجهزة بأبسط الضروريات.

ولكن أثناء الساعات التي يقضيها في الحقل، كان الراعي يحمل فقط بندقية على كتفه، وبيده عكاز رفيع وطويل. كما كان يحمل أيضاً حقيبة صغيرة على كتفه، يضع فيها غذاءه، وزجاجة ماء، وربما بعض الإسعافات الأولية التي قد يستخدمها في معالجة قطيعه.

أما في الشرق الأوسط، فإن الراعي يحمل معه فقط عصاً وعكازاً. ومازلت أحتفظ ببعض ألعاب الطفولة، وهي عبارة عن الأدوات التي كان يستخدمها الرعاة الأفارقة في رعي أغنامهم،

ومن بينها عصا رفيعة مع كيس من الصوف الخشن. وكانت تلك أدوات الرعاة البدائيين الشائعة في جميع أنحاء العالم.

وكان كل راعٍ صغير، يتملكه نوع من الزهو، عندما يبدأ في قيادة قطيع أبيه، فيختار عصا وعكازاً ملائمين تماماً لقامته وقوته، وكان ينتقي من شجيرات الغابة، فرعاً صغيراً مغروساً في الأرض، فيقطعه ويشذّبه بعناية فائقة، وبعد ذلك يقضي الصبي ساعات طويلة في ممارسة وتعلّم كيف يقذف عصاه بسرعة ودقة مذهلتين. لقد أصبح لديه سلاح أساسي للدفاع عن نفسه وعن قطيعه.

كانت هذه العصا تمثل إمتداداً لذراع الراعي اليمنى، فهي ترمز إلى قوته، وقدرته وسلطانه في كل المواقف الخطرة. فهو يعتمد على عصاه لحراسة نفسه وقطيعه في أوقات الخطر. كما أنها كانت أداة تستخدم للتأديب وتصحيح مسار الأغنام التي تصر على أن تحيد عن الطريق وتتحول بعيداً.

ومن المعلومات العرضية المثيرة التي أدخلت على كلمة "العصا" في اللهجة الدارجة في الغرب، فاللفظ العامي "عصا" يُقصد به الأسلحة النارية كالبنادق والمسدسات التي يحملها رعاة الماشية في الغرب. وهذا هو المعنى الذي يتضمنه على وجه التحديد هذا المزمور. فالخراف متأكدة من أن عصا المالك هي سلاح قوته وسلطانه ودفاعه عن نفسه وتجعله يشعر بالارتياح

الدائم، ومن خلالها يستطيع الراعي أن يسيطر بفاعلية على قطيعه في كل موقف.

وجدير بالذكر، أنه عندما دعا الله موسى، راعي الأغنام، وأرسله ليطلق بني إسرائيل من عبودية فرعون في مصر، كانت عصاه التي عملت معجزات، رمزاً للقوة الكائنة في شخصه. كانت عصا موسى دائماً مصدر المعجزات المبهرة ليس لإقناع فرعون برسالة موسى الإلهية فقط، وإنما أيضاً لبث الثقة في نفوس بني إسرائيل.

لذلك فإن العصا تتحدث تبعاً لكلمة المتحدث، وتعبرّ عن قصد واستمرارية عمل الله في الذهن والإرادة خلال تعامله مع البشر. إنها تعلن السلطان الإلهي، فهي تحمل معها القوة الكامنة واليقين الذي لا يُدحض من عبارة "هكذا قال الرب".

وكما كانت الخراف تشعر تماماً بالراحة والعزاء وهي ترى العصا في يد راعيها الماهر، كذلك أيضاً في أيامنا هذه، هناك ثقة عظيمة داخل قلوبنا، عندما نتأمل في القوة، والصدق والسلطان الهائل لكلمة الله. فالكتاب المقدس هو عصا الله، لأنه امتداد ذهنه وإرادته ومقاصده للإنسان. ففي العصر الذي نحيا فيه، تزايدت الأصوات المربكة والفلسفات الغريبة، فتأتي كلمة الله لتبث الثقة في أولاد الله. إنها يد الله المبسوطة بالسلطة. إننا نشعر براحة كاملة عندما نقتني ونستخدم تلك الأداة التي تتميز بالسلطان،

والحد القاطع، والقدرة التي بها نمنطق أنفسنا. إنها تنتشلنا من الحيرة وسط الفوضى فتنقلنا إلى حياة مليئة بالسكون والصفاء، الأمر الذي يذكرنا بقول المرنم "عَصَاكَ ... تعزيني"

هناك سبب ثان من أجله يستخدم الراعي العصا، وهو لتهذيب وتأديب خرافه. ولا يمكنني أن أصف مدى الدقة التي بها يقذف الراعي في أفريقيا عصاه على بعض الخراف المتذمرة. فلو رأى الراعي خروفاً يتجول بعيداً أو يقترب من أعشاب سامة، أو يتعرض لخطر وشيك، فإنه يصدر على الفور صفيراً مشيراً بعصاه عبر الهواء ،وهذا من شأنه أن يعيد الحيوان الشارد للسير مع القطيع.

ويتكرر كثيراً في الكتاب المقدس، أن هذا الكتاب سيحفظك من الخطية، إنها كلمة الله التي تنفذ بسرعة فائقة داخل قلوبنا، وقد يأتي معها حزن مفاجيء لكي تصحح مسارنا وتعيدنا عندما نشرد بعيداً، إن روح الله الحي يستخدم كلمته الحية، لينبه ضمائرنا لكي نسلك السلوك الصحيح، وبهذه الطريقة، نبقى تحت توجيه الرب يسوع الذي يريدنا أن نسلك في سبل البر.

وهناك استخدام آخر مهم للعصا، وهو عندما يقوم الراعي بفحص وعدِّ الأغنام. ومن مصطلحات الكتاب التي تتضمن هذا المعنى، ما قيل في حزقيال ٢٠: ٣٧ "تحت العصا" وهذا لا يعني فقط الخضوع تحت سلطان وسيطرة المالك، ولكن أن نحظى بأفضل

عناية وأن ندخل في اختبارات مباشرة مع الله. فالخروف الذي مرّ "تحت العصا" يدخل ضمن العدد ويخضع للفحص بعناية فائقة للتأكد تماماً من أحواله. وليس من السهل بسبب كثافة صوف الأغنام، أن يلاحظ الراعي الجروح أو الأمراض التي قد تصيبها. ولكن الراعي المحنك سيأخذ عصاه ويرفع صوف الخروف لكي يتفحّص حالة الجلد، ونقاء طبقة الصوف الكثيفة، وبعبارة أدق، فإن الراعي لا يجب أن تغفل عيناه عن صوف الخروف.

إن الراعي الصالح، لكي يقدم رعاية كاملة لقطيعه، سيقوم من وقت لآخر بفحص كل خروف على حدة. وما أعجب هذا المنظر، حينما يخرج كل حيوان من الحظيرة، ويتم إيقافه عندما يبسط الراعي عصاه، ويرفع بها الصوف، ويتحسس بيده جسم الخروف بمهارة فائقة، وعندما يشعر بوجود مشكلة ما، فإنه يعيد فحص الخروف بعناية حتى يتيقن من سلامته. إنها عملية فحصٍ تتم على أعلى مستوى، وتستلزم بحث أدق التفاصيل، وفيها أيضاً يشعر الخروف بالراحة، لأنه بهذه الطريقة فقط، يمكن للراعي أن يكتشف مصادر الألم لديه.

وهذا هو ما قصده في مزمور ١٣٩: ٢٣ – ٢٤ حينما قال المرنم. **"اخْتَبِرْنِي يَا اللهُ وَاعْرِفْ قَلْبِي. امْتَحِنِّي وَاعْرِفْ أَفْكَارِي. وَانْظُرْ إِنْ كَانَ فِيَّ طَرِيقٌ بَاطِلٌ وَاهْدِنِي طَرِيقاً أَبَدِيّاً."**

وإذا أطعنا، فإن الله سيفحصنا من خلال كلمته. لن يكون

هناك رفع للصوف أمام عينيه، لكنه سينحني ويعاين حالة إنساننا العتيق، ويكشف الأمور التي تحتاج أن يعالجها، لا يجب أن نتحاشى هذه العملية، فهي تتم لصالحنا، وهو يعملها باهتمام ورأفة. فراعي نفوسنا العظيم يدبر احتياجات قلوبنا عندما يفحصنا. ويالها من راحة ينعم بها أولاد الله، الذين وضعوا ثقتهم في عنايته.!

يرمز الصوف في الكتاب المقدس إلى حياة الذات، إدارة الذات، فرض الذات وكبرياء الذات. ولكن الله ينحني، ويقوم بالعمل العميق داخل إرادتنا، ليصحح الأخطاء التي غالباً ما تزعجنا في الداخل. فغالباً ما نتجمل من الخارج بالطيبة والشجاعة، بينما في حقيقة الأمر، هناك أمور داخلية تحتاج إلى العلاج.

وأخيراً، تكون عصا الراعي حماية لنفسه ولقطيعه عندما يحدق بهما الخطر فهي تستخدم في حالتي الدفاع والردع ضد كل هجوم.

إن الراعي الماهر يستخدم عصاه لطرد الحيوانات المفترسة مثل الذئاب، والفهود والكلاب الضالة، كما تستخدم في ضرب وصد مناوشات الأفاعي التي قد تزعج القطيع، مثلما استخدمها داود في مهاجمة الأسد والدب اللذين كانا يريدان الفتك بقطيعه. كنت في كينيا أقوم بتصوير بعض الأفيال وكان يرافقني راع صغير يمسك مضرباً في يده، ووصلنا إلى قمة أحد التلال يمكننًا فيها أن نرى قطيع الأفيال في الغابة الكثيفة الموجودة تحتنا. وأردنا

أن ندفع الأفيال لكي تخرج إلى الخلاء، فقررنا أن ندحرج حجراً ضخماً باتجاهها، وكانت هناك حية من فصيلة الكوبرا متكوّرة تحت الحجر، وتأهبت لمهاجمتنا، لكن الراعي الصغير اليقظ أطاح رأسها بمضربه وقتلها على الفور. وقد تمّ كل هذا في جزء من الثانية. فهذا السلاح لم يفارق يديه أبداً حتى بينما كان يدحرج الصخرة.

لقد كانت عصا الله هي كلمته التي استخدمها راعينا الصالح في مواجهته للحية إبليس أثناء التجربة في البرية. وهي نفس الكلمة التي يمكننا أن نعتمد عليها دائماً عندما نواجه هجمات إبليس، أياً كانت الهيئة التي سيظهر عليها سواء كانت ثعبانا ماكراً، أو أسداً زائراً.

وليس هناك بديل عن الكتاب المقدس في التعامل مع تعقيدات الحياة من حولنا. فنحن نحيا في مجتمع صعب، ويزداد تورطنا في مشكلاته. إننا جزء من عالم معاملاته تتناقض مع تعاليم السيد المسيح. وحتى نتعايش مع أفراد هذا المجتمع، فإننا نتعرض دائماً لتجارب مريرة مع كل نوع. ويكون بعض الناس حولنا في غاية الدهاء والنعومة، وتكون لدى البعض الآخر ميول لمهاجمة أولاد الله بعنف وتجريح.

ورغم ذلك، هناك راحة في كل موقف وتحت كل ظرف عندما نعرف أن كلمة الله تستطيع أن تواجه وتتغلب على الشدة إذا

طبقنا ما جاء فيها واستخدمناها حسناً.

أما العكاز فهو أكثر من أي أداة أخرى يستخدمها الراعي، وهي التي تدل على أنه راع. وليس هناك شخص في أية مهنة أخرى يحمل عكاز الراعي، إنه أداة متميزة في رعاية وتوجيه الأغنام فقط، وهو لا يستخدم مع الماشية أو الخيول أو الخنازير. فهو مصمم ومهيأ للأغنام بصفة خاصة ويستخدم لمنفعتنا فقط.

إن العكاز يرمز أساساً إلى الاهتمام والرأفة لدى الراعي. وليس ثمة لفظ آخر يصف بصورة أفضل ما يعمله الراعي للقطيع.

وبينما تحمل العصا مفهوم السلطان والقوة والتأديب والدفاع ضد المخاطر، فإن كلمة عكاز تشير إلى ما هو مؤلم ولطيف.

وعادة ما يكون عكاز الراعي عصا طويلة ورفيعة تنتهي بخطاف في طرفها. ويختارها الراعي بعناية، وهي مشكّلة بما يتوافق تماماً مع استخدام الراعي لها.

ومازلت أحمل ذكريات عميقة من أفريقيا والشرق الأوسط، حيث كنت أشاهد رعاة كباراً في السن وهم يقفون عند غروب الشمس متوكئين على عكازهم وشاخصين إلى قطعانهم بنفوس راضية. والعكاز أيضاً بطريقة ما، يمنح نفس الراعي راحة خاصة، ففي المواقف الصعبة وطوال فترة مراقبته لقطيعه، فإنه يتوكأ عليه مستمداً السند والقوة، لقد أصبح العكاز بالنسبة له راحته وعونه الأمثل أثناء القيام بعمله. وكما أن عصا الله تشير إلى كلمته، كذلك عكاز الله يشير إلى عمل روحه القدوس. ففي تعاملات المسيح معنا، هناك العذوبة والراحة والعزاء وتصحيح المسار بواسطة عمل روحه المعزي.

وهناك ثلاثة محاور يلعب فيها العكاز دوراً متميزاً في توجيه الأغنام. المحور الأول هو جمع الأغنام معاً في علاقة حميمة. فالراعي يستخدم عكازه ليرفع برفق حملاً حديث الولادة لكي يحضره إلى أمه إذا ابتعد عنه. ولقد شاهدت رعاة مهرة يحرّكون عكازهم بسرعة فائقة بين آلاف النعاج الوالدة، ويربتون بلطف ومهارة على الحملان الوليدة، ثم يرفعونها بعكازهم ويضعونها جنباً إلى جنب مع أمهاتهم. يا له من منظر ساحر يخلب الألباب!

وبنفس الطريقة، يستخدم الراعي عكازه للوصول إلى الأغنام المنفردة سواء كانت صغيرة أو عجوزاً، ويجتذبه نحوه في علاقة حميمة، فالعكاز نافع جداً للأغنام التي تتسم بالخجل والجبن والتي

تميل عادة للبقاء على مسافة من الرعي.

وهكذا أيضا في الحياة المسيحية، فإن الروح القدس "المعزي" يجذب المؤمنين في صداقة شخصية حارة مع بعضهم البعض، وهو يجتذبنا إلى الرب يسوع كما هو مذكور في سفر الرؤيا "الروح والعروس يقولان تعال"

ويُستخدم العكاز أيضا في توجيه الأغنام. لقد كنت أرى دائماً رعاة يستخدمون عكازهم في توجيه قطيعهم بلطف نحو ممر جديد، أو عبر بوابة، أو في الطرق الصعبة. فالراعي لا يستخدم عكازه فقط لضرب الحيوان، لكنه أيضاً يربت برفق فائق على جنب الحيوان مضيّقاً عليه حتى يتوجه إلى المكان الذي يريده الراعي.

لقد كنت أنبهر من رؤية الكيفية التي يمسك بها الراعي عكازه، سانداً إياه على جنب السلالات المتميزة من الأغنام أو تلك المفضلة لديه، وكأنه يقول لها ببساطة "إبقوا معاً"، وهكذا يسيرون طوال الطريق كما لو كانوا معاً يداً بيد. ومن الواضح أن الأغنام تتمتع بعناية خاصة من الراعي، مما يخلق بينهم صلة القرب والخصوصية والحميمية. وهكذا أيضاً في مسيرتنا مع الله، فقد قال لنا الرب يسوع، إن روح الله النبي سيرسله سيقودنا ويرشدنا للحق كله (يوحنا ١٦: ١٣). فهو يأخذ الحق من الله، أي كلمة الله، وينقله إلى قلوبنا وأذهاننا وإدراكنا الروحي. وهو الذي يقول لنا بلطف ورقة ولكن بإصرار "هذا هو الطريق الذي

يجب أن تسلكوا فيه" وعندما نتجاوب ونتعاون معه، فإننا نحظى بالأمان والارتواء والسعادة.

وهو الذي يمنحنا الهدوء واليقين لكي يجعل حياة المسيح راعينا، حياة شخصية وحقيقية وحميمة بالنسبة لنا. ومن خلال روح الله، أكون "على اتصال" دائم بالرب يسوع. وهذا يجعلني أدرك تماماً أنني مِلك له وهو مِلك لي. ويجعلني أعرف تمام المعرفة أنني ابن الله وأنه هو أبي. وفي كل هذا يملأني إحساس رائع ومريح من "الخصوصية" أو التفرد "بالانتماء له" لكوني "في رعايته" ومن ثمّ فأنا موضوع محبته الخاصة.

إن الحياة المسيحية ليست فقط وصفاً لمعتقدات معينة، أو إدراكاً لحقائق معينة، ولكنها بالإضافة إلى الثقة في الكتاب المقدس، لابد أن تكون هناك الخبرة الفعلية الحقيقية، وذلك من خلال شعوري بتلامس روحه لروحي بطريقة مباشرة، فلدى أولاد الله هناك الخبرة المتميزة، والحميمية، والعذوبة والتعزية. ليس هذا تخيلاً، إنما هو شعور حقيقي متأصل في الحياة اليومية. فمعرفة أنه معنا هناك ليوجه أدق تفاصيل الحياة اليومية تجعلنا نرقد في هدوء واسترخاء. إنه الشخص الذي نعتمد عليه لمساندتنا في كل قرار. وهكذا يتمتع المؤمن براحة فائقة.

وفي مرات كثيرة، كنت ألتفت إليه، وأسأله بصوت مسموع عن وجهة نظره في مشكلة معينة وأقول له "ما الذي ستفعله في

هذا الموضوع؟" وكنت أخاطبه "أنت الآن حاضر وتعلم كل هذه الأمور المعقدة، فأخبرني من فضلك عن الإجراء الأمثل في هذه المرحلة" ومن المثير حقاً أنه كان يستجيبني، وكان ينتقل ما في ذهن المسيح إلى ذهني، ومن ثمّ كنت أتخذ الإجراءات الصائبة بكل ثقة.

وعندما لم أكن أفعل هكذا، كان الأمر ينتهي بي إلى موقف صعب، وأجد نفسي في ورطة، وهنا مرة أخرى، يأتي الروح القدس لنجدتي، بالضبط كما ينقذ الراعي خرافه من المواقف التي تورطت فيها بسبب غبائها.

تتصف الأغنام عموماً بأنها عنيدة، وكثيراً ما تتعرض لمآزق مثيرة للسخرية وغير معقولة نتيجة عنادها. وقد رأيت أغنامي الخاصة وهي تقفز من منحدر شاهق، وتنزلق منه وتسقط في البحر، لأنها تريد أن تلتهم بشراهة كمية أكبر من العشب الأخضر. وليس هناك من يرفعها وينتشلها من البحر ويعيدها مرة أخرى إلى اليابسة سوى عكازي الطويل. وفي أيام الشتاء الباردة كنت أمضي ساعات عديدة في إنقاذ نعجة كانت تفعل هذا الأمر مرات كثيرة. ولكنها في النهاية هلكت نتيجة عنادها المستمر.

وفي بعض المرات كنت أجد أغناماً محشورة بين كومة من العُلَيْق، تدفعها لكي تصل إلى ما يشبع شراهتها من العشب

الأخضر خلفها وسرعان ما كان يعلق الشوك بصوفها ولا تستطيع الإفلات منه مهما صارعت، وكنت أحررهم منه فقط باستخدام عكازي.

هكذا نحن أيضا. فإننا نتوّرط في مشاكل كثيرة نتيجة تصرفاتنا.

وبعنادٍ نصرّ على إقحام نفوسنا في مواقف لا نستطيع أن نتحرر منها. ثم يأتي إلينا راعينا برفق وعطف وعناية، ويرفعنا بلطف بروحه القدوس من هذه الضيقة – يالصبر الله معنا! ياله من بذل وعطف! ياله من غفران! عكازك يريحني! روحك أيها المسيح، يعزيني!

الفصل التاسع

"تُرَتِّبُ قُدَّامِي مَائِدَةً...."

الفصل التاسع

"تُرَتِّبُ قُدَّامِي مَائِدَةً...."

من المفيد ونحن نتأمل في هذه الآية، أن تكون صورة الأغنام، وهي تقترب من مناطق الرعي الصيفية بأعلى الجبال، منطبعة في أذهاننا. فهذه المناطق يطلق عليها السهول المرتفعة، ويقبل عليها الرعاة بشغف.

وبعض أفضل الأماكن في العالم لرعي الأغنام، وبخاصة غرب الولايات المتحدة، وجنوب أوروبا، والسهول الواسعة المرتفعة، يطلق عليها "ميساس" وهي كلمة اسبانية تعني "الموائد".

ومن العجيب أيضا، أن كلمة مائدة باللغة السواحلية (الأفريقية) هي "ميسا" وهي على ما يبدو تعود في الأصل إلى المكتشفين البرتغاليين الذين وطأت أقدامهم الساحل الشرقي لأفريقيا. ولكن هذه الكلمة غير شائعة الاستخدام للإشارة إلى المناطق السهلية الموجودة بأعلى قمم جبال القارة.

وهكذا يتضح لنا، أن ما أشار إليه داود كان بالفعل منطقة الرعي الصيفية المرتفعة. ورغم أن هذه الـ "ميساس" قد تكون

بعيدة ومن الصعب الوصول إليها، فإن الراعي المفعم بالحيوية والممتليء بالجرأة، يبذل الجهد والوقت لإعداد هذه المناطق حتى يصل قطيعه إليها.

ففي بداية الموسم، حتى قبل أن يذوب الجليد بأشعة شمس الربيع، يذهب الراعي مبكراً، ويقوم برحلات مسح مبدئية لهذه الأماكن الموحشة، ويستكشفها بعناية فائقة، واضعاً في ذهنه على الدوام، العثور على رعي المختارة لقطيعه خلال الموسم القادم.

وقبل وصول الأغنام مباشرة، يقوم بحملة استطلاعية، وربما حملتين، لإعداد هذا السهل المرتفع لهم. ويأخذ معه كميات من الأملاح والمعادن لنثرها في أماكن إستراتيجية لفائدة الأغنام أثناء الصيف. ويقرر مسبقاً أفضل الأماكن لنوم وراحة القطيع. ويقوم بتفقد المراعي بعناية لكي يحدد الهضبة الأمثل التي تكسوها الخضرة ويكون النجيل كثيفاً فيها. كما أنه يقرر ما إذا كان يمكن استخدام بعض الأراضي الخلاء أو البرك بصورة مخففة، ويبحث عن المنحدرات والمروج الأخرى التي يمكن استخدامها للرعي بصورة مكثفة.

لا بد أيضاً من أن يتعرف على النباتات السامة، فلو وُجِدَت، يجب أن يعمل على ابتعاد أغنامه عنها أو يقوم باستئصالها.

ولم أكن أعرف أن أول مزرعة أغنام امتلكتها، كانت تنمو فيها زهور زرقاء وبيضاء ذات أطراف محدبة. وكانت الزهور

الزرقاء جميلة عندما كانت تنمو بطول الشاطئ في فصل الربيع. وكانت الزهور البيضاء أيضا جذابة ولكنها كانت تحمل سماً فتاكاً للأغنام. فلو قامت الحملان على وجه الخصوص بأكل أو قضم أغصان هذه الزهور، فستلقى حتفها على الفور.

لقد أمضيت أياماً كثيرة مع ولديّ، ونحن نقلع تلك النباتات السامة وكنا تقوم بهذه المهمة كل ربيع قبل أن تذهب الأغنام إلى تلك المراعي، ورغم أنها مهمة مرهقة بكل ما تعنيه الكلمة، لكنها كانت ضرورية "لتهيئة المائدة تجاه أعدائي" وللحفاظ على حياة خرافي.

ولكي أخفف عن إبنيّ عبء هذا العمل الشاق، كنت أقوم بتأليف قصص عن الحيوانات أشغلهما بها أثناء عملنا لساعات طويلة كنا نقضيها راكعين على ركبنا. وهكذا كان الوقت يمضي سريعاً، وأحياناً كانا يتدحرجان على العشب ضاحكين بينما كنت أضيف حركات فعلية لأضفي صورة الواقعية على قصصي ولولا هذا، لأصبحت تلك المهمة مملة وشاقة.

لقد كانت كل هذه الأمور في ذهن داود، عندما كتب هذا المزمور، فأتخيله سائراً ببطء في المرعى الصيفي متقدما قطيعه، وهو يرصد ببصره الحاد كالنسر، كل النباتات السامة فيقتلعها قبل وصول قطيعه إليها. وبلا شك كان يشعر بالراحة لاستئصالها مما يضمن سلامة قطيعه.

وهكذا الحال في الحياة المسيحية، فعلى مثال الأغنام وبخاصة الحملان، فإننا نريد أن نجرب كل شيء يصادف طريقنا، يجب أن نتذوق هذه وتلك، نختبر كل شيء لنرى ماذا يكون، وقد ندرك تماماً أن بعض الأشياء قاتلة ولا تصلح لنا، بل وقد تكون الأكثر فتكاً، ورغم هذا فإننا ننساق إليها على أية حال.

لأنه من المتوقع أن يصيبنا مثل هذا الأمر، لذلك علينا أن نتذكر أن سيدنا موجود هناك ويعالج كل موقف من شأنه أن يهلكنا.

ومثال ذلك قديماً، التحذير الذي وجهه الرب يسوع لبطرس من أن الشيطان قد طلبه لكي يغربله كالحنطة، ولكن يسوع طمأنه بأنه سيصلي من أجله، لئلا يفنى إيمانه أثناء الضيقة المحبطة التي سيواجهها. وهذا ما يحدث معنا الآن. فراعينا العظيم الصالح يتقدمنا في كل موقف، عالماً بالخطر الذي نواجهه، مصلياً لأجلنا حتى لا نستسلم. وهناك مهمة أخرى ينبغي أن يقوم بها الراعي خلال الصيف، وهي أن يكون يقظاً للحيوانات المفترسة، فيبحث عن أية آثار تخلفها وراءها الذئاب بأنواعها، والفهود والدببة. وإذا قامت هذه الحيوانات بمداهمة الأغنام أو التحرش بها، فلابد له أن يقاومها ويتحمل الآلام المريعة الناتجة عن صدّها والقضاء عليها، وحتى يتسنى لقطيعه أن يسترخي في هدوء.

وغالباً ما تكون هذه الحيوانات مختبئة داخل التجاويف

الصخرية، وهي تراقب أية حركة تصدر عن الخروف، وتنتهز أية فرصة مواتية، لتقوم بحركة مباغتة، وتهاجم الخروف الذي أصابه الهلع. وهكذا يسقط فريسة سهلة بين أنياب ومخالب هذا الحيوان الشرس.

لكن ترقب الراعي وإصراره على أن يكون ظاهراً تماماً على السهل المرتفع أمام قطيعه، وترصده لتلك الحيوانات المفترسة، يحول دون أن تسقط أغنامه فريسة لهذه الحيوانات. إن استعداده لمثل هذه المواقف المباغتة، ينجي قطيعه من الهلاك والفزع من هذه الحيوانات.

ومرة أخرى، لدينا صورة رائعة لمخلصنا، فهو يعرف كل غواية أو حيلة، أو خداع يقوم به عدونا إبليس وأعوانه. فنحن دائما في خطر المداهمة. ويشير الكتاب المقدس إلى هذا الأمر بعبارة "إبليس خصمكم كأسد زائر يجول ملتمساً من يبتلعه". هناك اعتقاد شائع في عالمنا اليوم، فالمؤمن يتوهم أن إبليس ضعيف، وقد يميل إلى إلغاء وجوده، أو جعله موضع سخرية واستهزاء، وقد ينكر البعض حقيقة وجوده. ومع ذلك فإننا نرى الدليل على هجماته بلا رحمة، في تلك المذابح التي يُسْقِط بها الناس يوما بعد يوم من خلال خططه الماكرة.

ويذكرني هذا الأمر بمواجهاتي مع الفهود. فهذه الحيوانات الماكرة كانت تندس في وسط الأغنام ليلاً وتُحدث فوضى عارمة

بين القطيع. وكانت بعض النعاج تموت على الفور، وتسيل دماؤها ويُلتهم كبدها. وكانت بعضها تتمزق بمخالب هذه الحيوانات. وكانت القطط الضخمة تبدو وكأنها تطاردها وتمرح معها وهي في حالة الرعب هذه، وكأنها تطارد فئراناً. ورغم الخسارة والإصابات والخوف الذي حلّ بالقطيع، فإنني لم أر أبداً فهداً في المرعى. إنها حيوانات ماكرة جداً وماهرة للغاية في هجومها بما يفوق الوصف، ونحن سنكون حكماء عندما نسير بجوار المسيح طوال الوقت، حينئذ سنكون في أمان. فالأغنام التي كانت فريسة للحيوانات المفترسة في أية لحظة هي الأغنام الشاردة، وفي العادة تهرب الحيوانات المهاجمة قبل أن يتنبّه الراعي لوجودها. ومن الطبيعي ألا تصدر الأغنام صوتاً نتيجة الرعب الذي ينتابها أثناء الهجوم، ولا تبدي حتى غمغمة بسيطة قبل أن يهرق دمها.

وهذا ما يحدث بالضبط مع المؤمنين، فالكثير منا يجتاز ضيقات سريعة فوق طاقة نفوسنا، حتى أننا نصاب بالخرس عند توقع الشر، ولا نستطيع أن نصيح طلباً للإستغاثة، إنما ننهار أمام تلك الهجمات المعادية.

لكن الرب يسوع لشدة اهتمامه بنا، لا يسمح بوقوع مثل تلك الهجمات علينا... إن راعينا الصالح يريد أن يلاشي مثل هذه الكوارث، ويريدنا أن نقضي هذا الصيف المؤقت بسلام. إن إلهنا يود أن تكون فترات وجودنا على مرتفعات الجبال، فصولاً من الهدوء والسكينة. وسوف يحدث هذا، إذا بقينا حيث يستطيع

حمايتنا، وأخذنا نلهج في كلمته كل يوم، وكنا نقضي أوقاتنا في التحدث معه. يجب أن نمنحه فرصة ليتلامس معنا بروحه، ونحن نتأمل في حياته وبذله ذاته من أجلنا كراعٍ صالح لنا.

هناك أيضا عمل شاق يجب أن يقوم به الراعي على السهل المرتفع وهو أن ينقي عيون المياه، والينابيع، وأماكن الشرب الأخرى. يجب أن يرفع منها بقايا الأغصان المتراكمة، والحصى والحجارة وجميع العوالق التي ربما تكون قد سقطت فيها خلال فصلي الخريف والشتاء. وقد يحتاج إلى ترميم السدود التي صنعها لحجز المياه، ويطهر فتحات الينابيع من الحشائش والنباتات والأعشاب. كل هذا يدخل ضمن نطاق مسئولياته لكي يهيء مكاناً مثالياً لرعي أغنامه في الصيف.

وهكذا الحال أيضا في الحياة المسيحية، فالرب يسوع راعينا الصالح العظيم، يتقدمنا بنفسه في كل موقف ويواجه كل خطر قد يداهمنا. ونحن متيقنون بأنه جُرب في كل شيء كما نُجرب نحن. لقد اختبر على أكمل وجه، وبصورة واضحة، كل ما يواجه الإنسان في حياته على الأرض. لقد علم معاناتنا، واختبر أحزاننا، وتحمّل صراعاتنا في الحياة، لقد كان رجل أوجاعٍ ومختبر الحزن.

ولهذا السبب فهو يفهمنا على أكمل وجه، لذلك فهو يحيطنا بأكبر قدر من الرعاية والعطف بما يفوق أن نستوعبه. فلا عجب أنه يزودنا بكل الإمكانيات التي تبث فينا الثقة في العمل ضد

إبليس، والخطية، والذات. إن المواجهة لن تكون من جانب واحد، نحن على يقين أنه قد اجتاز هذا الموقف من قبل، وأنه حاضر معنا فيه مرة أخرى، ولهذا فإن إمكانيات حمايته لنا عظيمة وهائلة.

وهكذا تصبح حياة المؤمن اختباراً رائعاً على قمم الجبال، ورحلات السهول المرتفعة، لأنه ببساطة في رعاية الرب يسوع وتحت توجيهه. فهو كان متواجداً قبلنا في هذا الموضع، وهيّأ لنا "المائدة" لرؤية أعدائنا بطريقة مكشوفة وواضحة، فلا يمكنهم أن يقضوا على معنوياتنا، ويجهزوا علينا.

ومن المشجع أن ندرك تماماً، أنه في كل جانب من الحياة هناك أضواء وهناك ظلال. وأيضا في الحياة المسيحية هناك أودية وهناك قمم جبال. والعديد من الناس يفترضون أنه بمجرد أن تصبح مؤمناً، تصبح الحياة بالتالي بستاناً رائعاً من البهجة. إن الأمر ليس هكذا. فقد تكون الحياة بستاناً من الألم كما كان مخلّصنا في بستان جسثيماني. وكما قلنا من قبل، فأنت لن تصعد إلى قمم الجبال دون أن تمر على الأودية، وحتى على قمة الجبل قد تواجه خبرات صعبة.

إن كون الراعي قد تقدّم واتخذ كافة الاحتياطات الممكنة لسلامة ورفاهية أغنامه أثناء فترة تواجدهم بأماكن الرعي الصيفية، لا يعني أن الأغنام لن تصادفها مشاكل هناك. فما زالت الحيوانات المفترسة لديها القدرة على المداهمة، وهناك النباتات

السامة التي مازالت تتكاثر، وهناك أيضا العواصف العاتية، بالإضافة إلى المخاطر الأخرى التي قد تحيق بالسهول المرتفعة.

وهذا يعني بالنسبة لنا كمؤمنين، أنه مع رعاية الرب يسوع وعنايته، فإنه يؤكد لنا أننا سنمتليء بالفرح الممتزج بالحزن، وسنصادف أياماً مبهجة بجانب أيام مظلمة، وسنتمتع بأشعة الشمس المشرقة بجانب الظلال.

ولا يتضح لنا دائماً، التكلفة الشخصية الهائلة التي تكبدها الرب يسوع حتى يرتب مائدة لخاصته. وكما أن الراعي الذي يهييء مرعى صيفياً لقطيعه يقدم تضحيات كثيرة، هكذا أيضا كان الصراع الأليم في جسثيماني، وفي دار بيلاطس، وفي الجلجثة وما تكبده سيدنا من أجلنا.

فعندما أتقدم إلى مائدة الرب، وأشترك في سر التناول، الذي يعد عيداً للشكر على محبته ورعايته، فهل أقدّر تماماً ما تكبده من معاناة حتى يرتب لي هذه المائدة؟ إننا نحتفل هنا بتذكار أعظم وأعمق إعلان عن المحبة الحقيقية للعالم. فلقد تطلّع الله إلينا، ونظر مشقتنا، وصراعنا، وخطايا بشريتنا، وتحرك بعاطفته الأبوية إلى الكائنات التي صنعتها يداه، والتي تماثل الأغنام في طباعها وغبائها. ورغم المشقة الهائلة التي سيعانيها شخصياً لكي يحررهم من كل القيود، فقد اختار أن يتنازل ويعيش بينهم ليخلصهم. وهذا تطلّب إخلاء ذاته من عظمته، ومكانته، وامتيازه

كالواحد وحده الكامل بلا عيب وكان لابد أن يتعرض لعوز شديد، واستهزاء، وتهم كاذبة، وشائعات تنطلق من حقد دفين، وأن يُشهّر به على أنه شره، سكير، صديق للخطاة وحتى كمختل. وقد تسبّب كل هذا في معاناة جسدية، وآلام ذهنية شديدة مع الآلام النفسية.

وباختصار، فإن مجيئه إلى الأرض كالمسيح، وكيسوع الناصري، كان قضية عظيمة من بذل مطلق للذات، بلغ مداه على صليب الجلجثة. إن بذله لذاته، وسفك دمه هما الرمزان الساميان للغاية لإنكار ذاته. كان هذا هو الحب نفسه، لقد كان الله. كان هذا هو العمل اللاهوتي الذي حرر الناس من أنانيتهم القصوى ومن حماقتهم، من نزوعهم إلى الانتحار كأغنام ضالة غير قادرة على مساعدة نفسها.

وفي كل هذا هناك سر غامض. فلن يستطيع أحد أبداً أن يدرك مضامين هذا العمل. فهذا العمل مرتبط ارتباطاً وثيقاً بمفهوم الحب الإلهي، وإنكاره لذاته، الأمر الذي هو غريب على معظمنا، الذين يركزون على ذواتهم. إن أفضل ما يمكن أن نستوعبه بقدر ضئيل، هو ذلك المفهوم الذي لا يكاد يصدق عن إنسان كامل، بلا خطية، أراد أن يُجعل بالفعل خطية لأجلنا، لكي يعتقنا نحن الملوّثين بالأنانية ومحبة الذات والشك، ومن الخطية والذات، لنحيا حياة جديدة من البر ممتلئة بالغنى والفرح. لقد قال لنا يسوع، إنه

جاء لتكون لنا حياة، وليكون لنا أفضل. فكما أن الراعي يشعر بفرح لا ينطق به عندما يرى خرافه تنتعش وتنمو على مراعي مرتفعات الصيف الخصبة، كذلك أيضا يكون فرح راعينا عظيماً عندما يراني انتشي على مائدة الحياة السامية التي هيأها لي.

إن جانباً من الغموض والعجب في الجلجثة، يكمن في محبة الله لنا في المسيح، ويرتبط برغبة قلبه العميقة بأن يجعلني أحيا على أعلى مستوى. فهو يتطلع لأن يراني أحيا فوق مستوى الأمور الأرضية التي للإنسان العادي. ويسعده أيضا أن أسلك في طريق القداسة، وإنكار الذات، والقناعة والصفاء لأنه يعتني بي، ولأنني أدرك حضوره معي وأتمتع برفقته الحميمة.

فالحياة هنا تعني أن أحيا بملء النعمة.

والسير هنا يعني أن أسير بثقة وهدوء.

والتغذية هنا تعني أن أتشبّه بالأعمال الصالحة.

وحتى أجد تلك المائدة يعني أن أختبر شيئاً عن محبة الراعي لي.

الفصل العاشر

"مَسَحْتَ بِالدُّهْنِ رَأْسِي..."

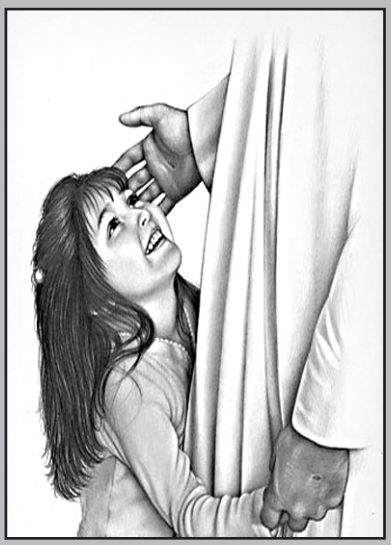

الفصل العاشر

"مَسَحْتَ بِالدُّهْنِ رَأْسِي..."

عندما يتأمل أحدنا في هذا المزمور المتميز، فإنه من المفيد أن يضع في ذهنه، أن هذا المزمور يتكلّم عن الأحداث البارزة التي مرت بحياة الراعي طوال العام. فهو يأخذنا معه من تلك المزرعة المنـزلية، حيث يتم بعناية توفير كل احتياجات الراعي للذهاب إلى المراعي الخضراء، عبر المياه الساكنة، ومن خلال الوديان الجبلية، إلى أن يصل إلى السهول المرتفعة.

هنا، تبدو الأغنام منطلقة إلى مكان غاية في الروعة على المروج العالية، حيث تجري ينابيع المياه الصافية، ويتوفر العلف الطازج الرطب، وحيث تكون هناك العلاقة الحميمة مع الراعي، وفجأة نجد "ذبابة في الدهن" كما يقولون.

كما يقول الراعي "فإن فصل الصيف هو وقت تكاثر الذباب". وهذا التعبير فيه إشارة إلى تلك الحشود من الحشرات التي تتخذ من حرارة الطقس فرصة للتكاثر. والذين يمتلكون

مواشي، أو الذين يقومون بدراسات على طبيعة الحياة البرية، هم فقط الذين يدركون المشاكل الخطيرة التي تسببها هذه الحشرات للحيوانات خلال فصل الصيف.

ويمكننا أن نذكر بعض الطفيليات التي تسبب مشاكل للقطيع وتجعل حياته مؤلمة. فمن بينها الذباب الطنّان، ذباب الأنف، وذباب الغزلان، والذباب الأسود، والناموس، والطفيليات الدقيقة الأخرى الطائرة التي تتكاثر في هذا الوقت من العام. فإذا هاجمت هذه الطفيليات الحيوانات، فإنها تحوّل أشهر الصيف إلى عذاب للأغنام يدفعها للشرود بعيداً.

وأكثر ما يثير اضطراب الأغنام هو ذباب الأنف، أو ما يسمى أحياناً الذباب الأنفي. فهذا الذباب الصغير يصدر طنيناً حول رأس الحيوان محاولاً أن يضع بيضه على الغشاء المخاطي الرطب لأنفه. وإذا نجح الذباب في هذا العمل، فإن البيض سيفقس خلال أيام قليلة ويتحول إلى ديدان صغيرة رفيعة مثل اليرقات، وهذه الديدان تشق طريقها عبر القنوات الأنفية في رأس الحيوان، ثم تنبش في اللحم وتسبب تهيجاً مصحوباً بالتهاب مزمن.

وحتى تستريح الأغنام من هذا العذاب المرير، فإنها تقوم بخبط رأسها باحتراس في الشجر أو في الصخر أو في الأعمدة، كما تقوم بحكها في الأرض، أو خبط قوائم خشبية مرتفعة، وفي بعض الحالات الحرجة، عندما يكون غزو الذباب شديداً، فإن الخروف

قد يقوم بحركات تتسبب في موته بينما يجري مسعوراً. وغالباً ما تؤدي المراحل المتقدمة من التلوث إلى الإصابة بالعمى.

لذلك فإن ذباب الأنف عندما يحوم حول القطيع، تصبح بعض الأغنام مسعورة، وتشعر بالرعب، وتحاول الهروب من معذبيها، فتدب بأرجلها بعصبية، وتهرب من مكان إلى آخر في محاولة للتخلص من الذباب، ولكن دون جدوى. وقد يسقط بعضها من الإعياء الشديد نتيجة العَدْو لمسافات طويلة. وقد يهز بعضها رؤوسها لأعلى ولأسفل لمدة ساعات، وكل هذه الأمور تترك آثاراً مدمرة على القطيع. فالنعاج والحملان سرعان ما تذبل صحتها ويتناقص وزنها. ويقل معدل إدرار الحليب لدى النعاج، ومن ثم يتوقف نمو الحملان. وسينتاب بعض الخراف الطيش والتهور بسبب الفزع، قد يُصاب بعضها بالعمى، أو يقضي بعضها نحبه في الحال.

إن اليقظة إلى أقصى حد، وملاحظة الراعي الدقيقة لتصرفات الأغنام، يحولان دون حدوث مشكلات "وقت تكاثر الذباب". فعند أول بادرة لظهور الذباب بين القطيع، يستخدم الراعي مبيداً حشرياً يرشه حول رؤوسهم. وأنا كنت أفضل استخدام تركيبة منـزلية مكوّنة من زيت بذرة الكتان، والكبريت، والقطران ثم أدهن به أنف ورأس الحيوان كوسيلة لحمايته من ذباب الأنف.

ما أعجب تأثير هذا العلاج على الأغنام فما أن يتم دهن رأس الحيوان بالزيت، حتى يتغير تصرفه على الفور. فتنتهي الإثارة، والسعار، والهياج والقلق، وعلى النقيض من ذلك يبدأ الحيوان في تناول غذائه بهدوء ثم سرعان ما يستلقي في هدوء وقناعة. وهذه على وجه التحديد هي صورة الإثارة لحياتي الشخصية. فما أسهل وجود ذبابة في الذهن حتى في أعظم اختباراتي الخاصة! فقد تكون عبارة عن المشاحنات البسيطة التافهة ولكنها تسلب راحتي. وقد يكون التشويش التافه لكنه يصبح ناراً آكلة تجعلني أنحني أو أصطدم بحائط. ففي بعض الأوقات، توجد أشياء دقيقة تعذبني إلى الدرجة التي أشعر فيها بأنني أخبط رأسي بعنف، وهكذا يتدهور تصرفي كإبن لله إلى أحط درجة مخزية تؤدي إلى اليأس.

وكما يحدث مع الخراف، يجب أن نستخدم باستمرار الزيت للتغلب على الذباب، يجب أن يكون هناك مَسْح متواصل بالدهن من روح الله المعزي، ليقاوم مضاعفات النزاعات الشخصية المستمرة.

فهذه التركيبة من الزيت والكبريت والقطران لا تكفي إلا

للصيف الحالي. إنه إجراء لابد من تكراره كل صيف. والدهن المتواصل هو المضاد لعلاج هذه الحالة.

وهناك في الحياة المسيحية من يقول إن المؤمن لن يكون في حاجة للمسحة بروح الله سوى مرة واحدة فقط. ومع ذلك فإن مشاعر الإحباط الناتجة عما نقابله كل يوم، هي خير برهان على أن المؤمن يجب أن يستدعي روح الله على الدوام إلى قلبه وذهنه المضطرب حتى يمكنه مقاومة هجمات المعذِّبين.

وهذه عملية خاصة بيني وبين سيدي. ففي إنجيل لوقا ١١: ١٣ يحثنا الرب يسوع راعينا الصالح على أن نطلب الروح القدس من الآب.

إنها رغبه منطقية وشرعية أن نطلب يومياً مسحة الروح القدس المعزّي على أذهاننا. فالله وحده هو الذي يستطيع أن يشكّل فكر المسيح داخلنا، والروح القدس وحده هو الذي يستطيع أن يقدم لنا اتجاهات المسيح. وهو الذي يجعلنا قادرين على مواجهة المضايقات بهدوء وسكينة.

وعندما تخرج الظروف أو المواقف أو الأشخاص عن نطاق سيطرتنا، فإنها تنقل إلينا "حشرة"، ويمكننا أن نشعر بالفرح والصفاء عندما نقاوم تلك القوى "الخارجية" من خلال حضور روح الله القدوس. وقد أخبرنا الروح القدس صراحة في رسالة

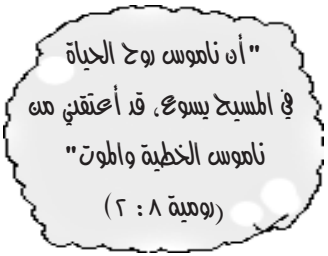

رومية ٢:٨ **"أن ناموس روح الحياة في المسيح يسوع، قد أعتقني من ناموس الخطية والموت"**

هذه هي مسحة الروح القدس اليومية لذهني. وهي التي تثمر في حياتي الشخصية وتجعلها تتمتع بالبهجة، والقناعة، والمحبة، والصبر، واللطف، والسلام، وهو النقيض تماماً للغضب، والإحباط، والسخط، وكل الأمور التي تُشوه التعاملات اليومية للكثيرين من أولاد الله.

ما الذي يجب أن أفعله في أي موقف أتعرض له؟ أن أعرضه على سيدي، ومالكي، الرب يسوع المسيح، وأقول له ببساطة يا رب إنني لا أستطيع أن أتجاوب مع هذه المشاكل التافهة، المكدرة، والتي تضايقني، أرجوك أن تمسح ذهني بدهن روحك. ففي كل الحالات المرتبطة بحياتي الفكرية سواء بوعي أو بغير وعي، امنحني القدرة على أن أفعل وأتفاعل بالتمام وفقاً لإرادتك. ثق أنه سيفعل، وسيفاجئك بالاستجابة الفورية لهذه الطلبة الهامة التي رفعتها أمامه.

وفي فصل الصيف لا يقتصر الأمر بالنسبة للأغنام على مجرد تكاثر الذباب، لكنه أيضا "وقت انتشار مرض الجرب".

والجرب مرض مؤلم سريع العدوى، وهو شائع بين الأغنام على مستوى العالم. وتحدث الإصابة به بسبب ميكروب دقيق يتكاثر في المناخ الدفيء، وهو ينتشر بين الأغنام نتيجة الاحتكاك المباشر بين الحيوانات المصابة والغير مصابة.

فالأغنام تميل إلى أن تحك رؤوسها بعضها مع بعض بأسلوب ودي ينم عن المحبة، ولأن الجرب غالباً ما يوجد حول الرأس، فإن العدوى تنتقل مباشرة من واحدة إلى أخرى. وفي العهد القديم كان يشترط أن تكون الحملان التي تُقرّب كذبائح بلا عيب، ولعل ما كان يدور في ذهن الكاتب، هو ألا تكون مصابة بداء الجرب على وجه الخصوص، ويمكننا القول إن داء الجرب هو علامة على الدنس أو الخطية أو الشر.

ولنرجع مرة أخرى إلى موضوع الذباب، الذي علاجه الوحيد الفعّال، هو الدهن بزيت بذرة الكتان، والكبريت، والكيماويات الأخرى التي تحول دون الإصابة بهذا المرض. ففي بعض البلدان التي يدور نشاطها الاقتصادي حول رعي الأغنام، يتم بناء أحواض تمتليء بالمياه ثم يغمر فيها القطيع بأكمله، ويغمر كل حيوان بالكامل في المحلول إلى أن يتشرب جسمه به. وأصعب جزء من جسم الحيوان هو الرأس، فلا بد أن تُغطّس الرأس عدة مرات، وحتى يتم التأكد من أن داء الجرب أصبح تحت السيطرة الكاملة. يقوم بعض الرعاة باستخدام أياديهم بعناية فائقة لتغطيس رأس الخروف.

لقد أصيب قطيعي بالجرب مرة واحدة فقط، والسبب أنني قمت بشراء نعاج من مزارع أخرى لزيادة عدد القطيع. ولم يكن ظاهراً لي، أنها مصابة بالجرب، الذي سرعان ما انتشر بين كل القطيع الذي كان يتمتع بصحة جيدة. وكان عليّ أن أقوم بشراء حوض ضخم كمغطس، وقد كلفني هذا كثيراً جداً، وبسرعة وضعت القطيع كله في المغطس بالاستعانة مع بعض الفعلة، لقد كانت مهمة شاقة استلزمت عناية فائقة برؤوس الحيوانات، ثم استخدمت محلول المعالجة لتطهيرهم، وهذا ما كان داود يعنيه عندما كتب **"مَسَحْتَ بِالدُّهْنِ رَأْسِي..."** كان هذا هو العلاج الوحيد لمرض الجرب.

وجدير بالذكر أن العلاج القديم لهذا الداء في فلسطين، كان مركباً من زيت الزيتون المختلط بالكبريت والتوابل، وكان هذا العلاج المنـزلي مطبقاً بنفس الطريقة للوقاية من الذباب الذي يلاحق القطيع.

وبالنسبة للحياة المسيحية، فإن معظم ما ينقله إلينا العالم من فساد بواسطة الخطية، يكون من خلال أذهاننا التي تتلوث، ومن ثم تصيبنا بالأمراض الروحية. إنها حالة تنتقل فيها الأفكار والمفاهيم والتصرفات والتي قد تكون مدمّرة، من ذهن إلى آخر.

غالباً ما يحدث هذا عندما نخلط رؤوسنا مع آخرين لا يكون لديهم فكر المسيح، وحينئذ ننغمس في مفاهيم غير مسيحية.

إن أفكارنا، ومعتقداتنا، وعواطفنا، وميولنا، ورغباتنا تتشكل وتصاغ من خلال تعريض أذهاننا مع أذهان الآخرين. ففي عصرنا الحديث، عصر تكنولوجيا الاتصالات تزداد مخاطر "الفكر المشوش". فالشباب على وجه الخصوص، تتشكّل أذهانهم تحت ضغوط وتأثيرات خدّاعة من خلال الانترنت، والتليفزيون، والفضائيات والراديو، والمجلات والجرائد، وزملاء الدراسة، أكثر من تأثيرات أولياء أمورهم ومعلّميهم.

إن وسائل الإعلام تقوم بالدور الأكبر في تشكيل أفكارنا، وهي تكون تحت تصرف أناس ليسوا في جوهرهم مؤمنين، بل وقد يعملون في بعض الأحيان ضد المسيح.

لا يمكن لشخص يتعرّض لمثل هذه العلاقات إلا أن يتلوث. فأنماط تفكير الناس تزداد انحطاطاً، ولذلك فهناك في الوقت الحاضر ميل أكثر للعنف، والكراهية، والمحاباة والبخل، والاستخفاف، بينما ينمو بصورة مطّردة عدم الاحترام لكل ما هو نبيل، وحسن، ونقي أو رائع.

وهذا كله عكس ما يعلّمنا إياه الكتاب المقدس، ففي رسالة فيلبي ٤: ٨ يقول الرسول بولس **"أَخِيراً أَيُّهَا الإِخْوَةُ كُلُّ مَا هُوَ حَقٌّ، كُلُّ مَا هُوَ جَلِيلٌ، كُلُّ مَا هُوَ عَادِلٌ، كُلُّ مَا هُوَ طَاهِرٌ، كُلُّ مَا هُوَ مُسِرٌّ، كُلُّ مَا صِيتُهُ حَسَنٌ - إِنْ كَانَتْ فَضِيلَةٌ وَإِنْ كَانَ مَدْحٌ، فَفِي هَذِهِ افْتَكِرُوا."** والطريقة الوحيدة والعملية للحفاظ

على الذهن طاهراً من تلوث العالم هي أن نكون واعين تماماً، ومتطهرين كل وقت بحضور روح الله القدوس، الذي ينقل ما لله إلى أذهاننا.

ربما يكون هناك أشخاص لا يدركون كيف يتم توجيه أذهانهم وأفكارهم. هذا أمر بسيط يتطلّب من الشخص إيماناً وقبولاً. وهذا الأمر يماثل الشخص الذي يسأل الرب يسوع أن يأتي إلى حياته أولاً، لكي يضمن توجيهه الكامل لحياته، وهكذا يدعو الشخص الروح القدس بأن يأتي إلى عقله الواعي وغير الواعي لكي ينير ذهنه ويضبط أفكاره. وكما أننا بالإيمان نصدّق وندرك ونشكر الرب يسوع لحضوره في حياتنا، كذلك أيضاً بهذا الإيمان البسيط، وبهذه الثقة في المسيح نفسه، نؤمن وندرك ونقبل بالشكر حلول (أو مَسحة) روحه المعزّي لأذهاننا. وبعدها ندرك ونعي هذا الأمر تماماً، ونواصل ببساطة مسيرة حياتنا، ونؤمن إنه هو الذي يوجهها.

والمشكلة هنا، أن بعضنا لا يسعى باستماتة في طلب هذا الأمر. وعلى مثال الخراف العنيدة، نصارع، ونرفس، ونعترض عندما يضع السيد يده علينا لكي يقوم بهذا العمل. ورغم أن هذا الأمر هو لمنفعتنا، فإننا لا نزال نتمرد ونرفض أن ننعم بمعونته لنا رغم حاجتنا الشديدة جداً إليها. وهذا يعني أننا كثيراً ما نكون غليظي الرقاب، وكيف لا يكون الأمر هكذا، إن كان

المسيح يستمر في عطفه واهتمامه بنا، ورغم أن معظمنا يكونون بعيدين جداً عن الرجاء والعون. وفي بعض الأحيان، يكون لديّ يقين بأن الرب يسوع يأتي إلينا، ويمسح أذهاننا بزيت روحه، ورغم اعتراضاتنا يجب أن نتأكد من أن كل فكر نقي يدخل أذهاننا، مصدره هو الرب يسوع.

وعندما يصل فصل الصيف في المناطق المرتفعة إلى قرب نهايته حيث يبدأ فصل الخريف، تحدث بعض التغييرات بالنسبة لهذه الأماكن وأيضاً بالنسبة للأغنام. فالليالي تصبح باردة، وتكون هناك موجة من الصقيع، وتختفي الحشرات، وتقل الآفات، وتكتسي النباتات في التلال باللون الأحمر الداكن، والذهبي والبرونزي، كما يبدأ هطول الأمطار وتتهيأ الأرض لاستقبال فصل الشتاء.

أما بالنسبة للقطيع، فيكون هذا الموسم هو موسم الأخاديد والتزاوج، ونشوب المعارك الطاحنة بين الكباش للفوز بالنعاج. وتتضخم الرقاب الملكية (وهي من سلالة معينة) وتنمو بقوة، وتسير بغرور عبر المراعي، وتصارع بضراوة من أجل التزاوج بأفضل النعاج. ويمكن سماع أصوات التناطح بالرؤوس وارتطام الأجسام مع بعضها طوال الليل والنهار، والراعي يعلم كل هذه الأمور، ويدرك أن بعض الخراف قد تموت بالفعل أو تصاب أو قد تشوّه بعضها البعض نتيجة هذه المعارك الضارية. ولهذا فإنه

يوفر علاجاً بسيطاً جداً، ففي هذا الوقت من العام، سيقوم بوضع الشحم على جسد الكباش، ولقد اعتدت شخصياً بأن أضع كميات كثيرة من شحومات السيارات على رأس وأنف الكباش، فعندما تنشب المعارك الطاحنة، ويبدأون في التناطح بقوة، فإن الشحم يجعلهم ينـزلقون فيما بينهم بأسلوب يدعو للسخرية، مما يجعلهم يشعرون أكثر بالعناء والإحباط، وبهذا الأسلوب تنكسر إلى حد بعيد حدة التوتر، ما يترتب عليه أقل قدر من الخسائر.

ومما يدعو للأسف، أن هناك أشخاصاً كثيرين جداً من شعب الله، يتناطحون مع بعضهم بعضاً، ولو كنا لا نتواجه وجهاً لوجه في صراع، فإننا نثابر في محاولة فرض ذواتنا، لنصبح "خراف القمة" وهكذا يلحق الأذى بكثير من المؤمنين، وتُجرح مشاعرهم من مثل هذه التصرفات.

وكراع للكنيسة، وجدت أن الكثير من المآسي والجراح، وعدم المغفرة بين الناس، يمكن اكتشافها في الواقع بالرجوع إلى تحديات في الماضي، أو غيرة، أو خلافات نشبت بين المؤمنين. وهناك كثيرون ليست لديهم النية لدخول الكنيسة لأن هناك شخصاً في الكنيسة قد هاجمهم بعنف.

وحتى لا تحدث مثل هذه الأمور بين شعب الله، فإن راعينا الصالح يحب أن يمسحنا بدهنه الثمين بحلول روحه المعزّي داخل حياتنا. ومن المناسب أن نتذكر، أن سيدنا قبل صلبه مباشرة،

تعامل مع تلاميذه الإثني عشر، الذين كانت بينهم مشاحنات بسبب الغيرة والتنافس على من يكون الأول بينهم، كما أعلن لهم عن إرساله للروح القدس المعزّي، روح الحق. وعندما يحل الروح القدس عليهم. سيكون بينهم سلام، وأضاف قائلاً "بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي، إن كان لكم حب بعضاً لبعض."

ولكن الواقع ليس هكذا بين شعب الله. فإنهم يسيئون ويضربون بعضهم بعضاً، مصلّبين رقابهم بالكبرياء وفرض الذات. فهم لا يحتملون بعضهم بعضاً، ويتمسكون برأيهم ولا يبدون المرونة تجاه الآخرين.

وعندما يسيطر الروح القدس على فكر الشخص، ويدخل حياته، فإنه يفرض سيطرته على الشخصية، ويمنح السلام والبهجة، وطول الأناة في احتمال المشقات، والسخاء وتصبح كل هذه الأشياء من سمات الشخص الظاهرة، فيدرك هذا الشخص تفاهة ما كان يقوم به في السابق من غيرة وتنافس وأحقاد، وفرض الذات. وهنا نقتنع تماماً بعناية الراعي، وتصبح القناعة حقيقة واقعية في حياتنا. فنحن كأولاد لله، نتمتع بعناية الراعي الحقيقي، ويجب أن نحيا بالقناعة، فالقناعة التي تتسم بالهدوء والراحة، يجب أن تكون العلامة المميزة للذين ملّكوا الرب يسوع على حياتهم.

إنه الواحد الوحيد كلي المعرفة، والحكمة، والفهم لكل شئوني ومن ثمّ فهو قادر على أن يتجاوب مع كل موقف يمر

بي سواء كان حسناً أم سيئاً، ولذلك فإنني راضٍ ومقتنع بعنايته، وسيكون كأسي أو نصيبي في الحياة، وبطريقة عجيبة، فائضاً بكل أنواع الخيرات.

وعندما تأتي الاضطرابات ونصاب بخيبة الأمل، نكون عرضة لأن ينتابنا الشعور بأن راعينا قد تغافل عنا، ونبدأ نتصرف كما لو كان هو قد فشل في معالجة هذه الأمور. لكنه في الواقع لم ينم إطلاقاً، إنه لا يهملنا على الإطلاق، فهو ليس متغرباً عن كياننا أبداً، إن راعينا يضع في اعتباره دائماً الأفضل لنا.

لذلك يجب أن نكون شاكرين على الدوام، ومقدّرين عمله معنا. ويطلب منا العهد الجديد بوضوح أن نكون متشبّعين بفكرة أن كأس حياتنا لا بد أن يمتليء ويفيض بالخيرات بحياة المسيح نفسه وبحضور روحه القدوس، فنكون مبتهجين، وشاكرين، وهادئين.

وهذه هي الغلبة في الحياة المسيحية، حيث يكون المؤمن قانعاً وراضياً بكل ما يعترض طريقه مهما كانت الضيقات (عبرانيين ١٣: ٥) فمعظمنا يشعرون بالسعادة عندما تكون الأمور على ما يرام، ولكن من منا يقدّم الشكر والتسبيح لله عندما تسوء معه الأمور؟

عندما يبدأ فصل الخريف، وتهب العواصف على المناطق المرتفعة، وتهطل الأمطار الثلجية، فإن القطعان سرعان ما يتم

اقتيادها خارج هذه المناطق في طريق العودة إلى حظائرها حيث يبدأ فصل الشتاء الطويل الهادىء.

إن فصل الخريف فرصة ذهبية لأن تستريح الأغنام لفترة من الذباب والحشرات والجرب، وتتمتع فيه بالصحة والقوة فلا عجب أن يهتف داود "كأسي ريا"

ولكن في نفس الوقت، قد تهب عواصف ثلجية، وتهطل أمطار ثلجية فجأة، وقد يعاني القطيع وراعيه معاناة مريرة.

ويمكننا أن نستخلص شيئاً من مضمون الكأس التي تفيض. فهناك كأس معاناة في كل حياة. وقد أشار الرب يسوع إلى صراعه في بستان جسثيماني، الجلجثة، على أنه كأس. فلو لم تكن حياته فاضت وانسكبت لأجل الناس، لكنا قد هلكنا.

وكنوع من التدليل لأغنامي، كنت أحمل في جيبي زجاجة تحتوي خليطاً من الخمر والماء وعندما كانت نعجة أو حمل يرتعش بسبب تعرضه للبلل، أو بسبب الطقس البارد، كنت أقوم بسكب ملاعق قليلة من هذا المحلول في فمه. وفي خلال دقائق كان هذا الحيوان المرتعش ينتصب واقفاً ومفعماً بالطاقة والحيوية. لقد كانت وسيلة ظريفة وذكية، خاصة أن الحملان كانت تُحرك مؤخرتها مبتهجة بينما يسري دفء الخمر داخل أجسامها.

ومن المهم جداً، أن أكون هناك في الوقت المناسب، وأصل إلى

الخراف المرتعشة قبل فوات الأوان. كان يجب أن أكون معها أثناء العاصفة وواعياً بكل خطر قد يحدق بها. وتعود بي الذاكرة إلى الأيام التي كنت أرعى فيها أغنامي، فأتذكر العواصف المرعبة، والغيوم الداكنة الزاحفة من ناحية البحر، كما كنت أرى الأغنام وهي تتسابق نحو مأوى تحت الأشجار العالية، وهي تقف مرتعشة وواهنة. وأتذكر أيضاً الحملان الصغيرة وهي تمر بمعاناة شديدة لعدم وجود صوف غزير يحميها، فكان بعضها يستسلم فقط، والبعض الآخر يرقد في أسى، مما يزيد من تشنجه وإرتعاشه، وكنت أذهب إلى نجدتهم بخليط الخمر والماء. وأعتقد أن رعاة فلسطين كان لديهم ما يشبه الخمر يتقاسمونه مع خرافهم المرتعشة.

يالها من صورة رائعة لسيدنا وهو يوزع الخمر، جوهر الدم الحي لمعاناته، ومن كأسه الذي فاض وانسكب على الجلجثة من أجلي. إنه هناك معي في كل عاصفة ومتنبّه لكل كارثة قادمة قد تهدد شعبه. لقد اجتاز عواصف المعاناة قبلاً، لقد حمل أوجاعنا واختبر أحزاننا.

ولا يهم أية عواصف قد أواجهها، فحياته الشخصية، وقوته، وحيويته تنسكب داخل كياني، فتفيض كأس حياتي، الممتلئة بحياته، بفيض من البركات والخيرات للآخرين الذين يرونني منتصباً بقوة وسط كل ما يمر بي من تجارب وضيقات.

الفصل الحادي عشر

"إِنَّمَا خَيْرٌ وَرَحْمَةٌ يَتْبَعَانِنِي..."

الدرس الحادي عشر

"إِنَّمَا خَيْرٌ وَرَحْمَةٌ يَتْبَعَانِنِي..."

من خلال دراسة هذا المزمور، نجد تأكيداً متواصلاً على العناية التي يوليها الراعي اليقظ لأغنامه. وهناك تركيز على ما يبذله مالك المزارع من جهد وعمل ضروريين لإنعاش وخير القطيع. فكل المزايا التي يتمتع بها القطيع سببها إدارة مُحبّة رسمت خطوطها العريضة بمهارة.

وكل هذا يتجلّى هنا من خلال عبارة بسيطة ولكنها رائعة **"إنما خير ورحمة يتبعانني كل أيام حياتي."**

فالخروف يدرك أنه مع راعٍ مثل هذا، يتمتع بوضع مميز، فلا يهم ما يحدث، فهو على الأقلّ متيقنٍ تماماً بأن هناك خيراً ورحمة في هذا المشهد. ويزداد ثقة أنه دائماً مِلْكٌ لراعٍ يتصف بالثبات والتعاطف والذكاء. فماذا يريد أكثر من هذا؟ إن الخير والرحمة هما العلاج الذي يتلقاه من سيد خبير ومُحب.

إن هذه العبارة تحمل نوعاً ما، هتافاً من التفاخر بالثقة التامة في الشخص الذي يسيطر على مصيرنا ومجريات حياتنا.

إن هذه العبارة تحمل نوعاً ما، هتافاً من التفاخر بالثقة التامة في الشخص الذي يسيطر على مصيرنا ومجريات حياتنا.

تُرى كم من المؤمنين لديهم بالفعل هذا الشعور نحو المسيح؟ ترى من لا يبالي حقاً بما يصادفه من أتعاب في حياته، حيث الخير والرحمة يتبعانه؟ بالطبع يمكننا أن نتكلم عن هذا ببساطة عندما تكون الأمور على ما يرام. فلو كانت صحتي جيدة، ودخلي في تزايد، وعائلتي على ما يرام، ولديّ أصدقاء رائعون، فلن يكون من الصعب أن أقول "إنما خير ورحمة يتبعانني كل أيام حياتي."

ولكن ما الذي يحدث عندما يصاب جسدي بالضعف؟ وماذا أقول عندما لا أستطيع مد يد العون عندما أشاهد شريك الحياة يعاني سكرات الموت وهو يشعر بآلام مريعة؟ وماذا يكون رد فعلي عندما أخسر عملي وليس هناك مال يكفي لتغطية نفقات الحياة؟ وما الذي يحدث عندما لا يستطيع أولادي تحقيق النتائج المرجوة في الدراسة، أو عندما يتم التحفظ عليهم لمشاركتهم الجماعات الخارجة على القانون؟ وماذا أقول عندما أكتشف فجأةً ودون توقع، زيف أصدقائي، وأنهم يهاجمونني؟

هذه هي الأوقات التي تظهر فيها ثقة الإنسان في عناية الرب يسوع. هذه هي الأحداث التي تكون فيها الحياة أكثر من مجرد لائحة من الشعارات المبتذلة. فعندما ينهار عالمي الضئيل، وتتحطم قلاع أحلامي وتطلعاتي، هل أستطيع أن أعلن بكل تأكيد أن هناك خيراً ورحمة يتبعانني كل أيام حياتي؟ أم هو خداع ومظهر كاذب؟

عندما أتطلّع إلى حياتي الشخصية، في ضوء محبتي الشخصية وعنايتي بخرافي، فإنني أستطيع أن أرى مرة أخرى عاطفة مماثلة واهتماماً خاصاً بي، بينما سيدي يدبِّر شئوني. كانت هناك طرق منحدرة في حياتي، وأحداث تبدو وقتها أنها كوارث مريعة، وكانت هناك ممرات مظلمة قضيت أياماً فيها وقد أحاط بي الظلام. ولكن كل هذا تحوّل في النهاية لفائدتي وخيري.

ولم أكن أستطيع دائماً، نتيجة فهمي المحدود وضعفي، أن أدرك توجيهه لشؤوني بحكمته التي هي بلا حدود، ولم يكن من السهل نتيجة ميولي الطبيعية للخوف والقلق والتساؤل، أن أتوقع أنه يدرك ما يفعله معي. لقد مرَّت عليّ أوقات كنت مُجرّباً فيها بالفزع، والانطلاق بعيداً تاركاً عنايته بي. وقد راودني هذا الفكر السخيف، وهو أنني أستطيع أن أبقى بصورة أفضل معتمداً على نفسي. وهذا ما يفعله معظم الناس.

ورغم هذا التصرف الطائش، فإنني أشعر بسعادة بالغة

لأنه لم يتركني أو ييأس مني. إنني في غاية الامتنان لأنه تابعني بالخير والرحمة، وكان دافعه الوحيد لهذا، هو محبته الخاصة وعنايته واهتمامه بي كواحد من خرافه. ورغم شكوكي وهواجسي، فقد انتشلني وأعادني مرة أخرى في رقةٍ متناهية.

وعندما أتأمل في الأحداث الماضية، أُدْرِك حقاً أن الشخص الذي في رعاية الرب يسوع، لن تعترضه صعوبة، ولن تقف أمامه كارثة تجعل حياته تنحدر دون أن تنتهي كلها نهاية سعيدة، ويكون هناك خير يظهر وسط هذا التشويش. فهذه الأمور حدثت لكي أعاين خير ورحمة سيدي في حياتي. وقد أصبح هذا هو الأساس الراسخ لإيماني وثقتي به. إنني أحبه لأنه هو أحبني أولاً.

إن خيره ورحمته وتعاطفه معي يتجدد كل يوم، وثقتي راسخة في شخصه وفي محبته. إن هدوئي ينبع أساساً من ثقتي في قدرته على أن يفعل بي الصالح والأفضل في كل موقف أتعرض له. وهذه بالنسبة لي، الصورة الأسمى لراعيّ، فهو يفيض خيراً ورحمة على نحو متواصل رغم عدم استحقاقي، وإنما كل هذا يفيض من نبع محبة قلبه العظيم.

وهنا يكمن جوهر كل ما جاء قبلاً في هذا المزمور

فهو يوليني كل عناية، وكل اهتمام، وبذل ذات. لقد وُلدت من خلال محبته، إنها محبة الواحد الوحيد الذي يحب خرافه ويحب دوره كراعٍ.

"أَنَا هُوَ الرَّاعِي الصَّالِحُ وَالرَّاعِي الصَّالِحُ يَبْذِلُ نَفْسَهُ عَنِ الْخِرَافِ." (يوحنا ١٠: ١١)

"بِهَذَا قَدْ عَرَفْنَا الْمَحَبَّةَ: أَنَّ ذَاكَ وَضَعَ نَفْسَهُ لأَجْلِنَا، فَنَحْنُ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَضَعَ نُفُوسَنَا لأَجْلِ الإِخْوَةِ." (يوحنا الأولى ٣: ١٦)

وهنا يجب أن أسأل نفسي "هل هذا الفيض من الخير والرحمة يجعلني أتوقف في حياتي في ركود؟ ألا توجد وسيلة أستطيع بها أن أنقل ما أخذته إلى الآخرين؟"

نعم توجد وسيلة.

هناك جانب عملي إيجابي من خلاله تصبح حياتي نبعاً من الخير والرحمة بحيث يتبعانني لفائدة الآخرين.

وكما يتدفق خير الله ورحمته كل أيام حياتي، هكذا أيضاً الخير والرحمة يجب أن يتبعاني وأن أدعهما خلفي كميراث للآخرين في كل مكان أذهب إليه.

ومن الجدير بالذكر هنا، أن الأغنام حينما تكون تحت إدارة سيئة، قد تصبح أكثر أنواع الماشية تدميراً. وخلال وقت قصير يمكنها تدمير وإتلاف الأرض بحيث يصعب علاجها. وعلى النقيض من ذلك قد تكون أكثر أنواع الماشية نفعاً لو أحسن توجيهها.

فالسماد الذي تخلفه، هو أفضل أنواع السماد المتكامل بين أنواع الماشية، وهو يحقق أعلى فائدة للتربة. وعندما تمارس الأغنام عادتها في التجوال في أعلى ربوة من الأرض حيث تستلقي فيها، فإنها تمنح تلك الربوة خصوبة أكثر من المواضع المنخفضة من الأرض. ولا توجد أنواع أخرى من الماشية تستهلك عشباً بهذا التنوع الهائل، فالأغنام تأكل جميع الأعشاب الضارة وغيرها من النباتات غير المرغوب فيها، فهي على سبيل المثال، تحب أطراف الشوك الكندية الرطبة، وإذا لم يبعد الراعي قطيعه عنها، فقد ينتهي الأمر بكارثة.

وكان يشار إلى قطعان الأغنام في كتب الأدب القديم بأنها "ذوات الحوافر الذهبية" تقديراً لفوائد تأثيرها على الأرض.

ومن واقع خبراتي كمالك لمزرعة أغنام، فقد شاهدت مزرعتين كانتا مهملتين، ثم استعادتا إنتاجيتهما بوفرة، وأصبحتا أشبه بالمتنـزهات. والسبب في ذلك يعود إلى وجود الأغنام بها.

وبكلمات أخرى فإن الخير والرحمة يتبعان قطيعي أينما يذهب. فحيثما كان يسير، كان يُخلِّف وراءه خصوبة، وأرضاً خالية من الأعشاب الضارة. والسؤال المُوجَه إليّ الآن هل هذا الأمر حادث في حياتي؟ هل أترك ورائي اثاراً من البركات والفائدة للآخرين.

في واحدة من أروع قصائده الكلاسيكية، كتب الفريد تينيسون Alfred Tennyson "البشر الصالحون يخلفون حياة بعد رحيلهم".

وفي إحدى المناسبات، حضر إلينا صديقان أثناء توجههما في مهمة في بلاد الشرق، وقد قضيا بضعة أيام في منـزلنا، ووجها لي دعوة لمرافقتهما، وبعد سفرنا بأيامٍ كثيرة، تذكّر أحدهما أنه قد ترك قبعته في منـزلنا، وأرسل خطاباً لزوجتي لكي تفتش عنها ورجاها أن ترد عليه.

وكانت هناك عبارة في ردها لا يمكنني أن أنساها على الإطلاق، لقد كان لها وقع شديد على نفسي "لقد قمت بتفتيش المنـزل بكل دقة، ولم أجد لها أثراً، لكن من المؤكد أن الشيء الوحيد الذي تركه هؤلاء الرجال خلفهم كان بركة عظيمة لمنـزلنا!"

تُرى هل يشعر الناس هكذا تجاهي؟

هل انطبعت ذكرياتي، في أذهان الآخرين، بالخير والرحمة، أم أنها ستكون في طي النسيان؟

هل أخلف بركة ورائي أم أنني أتسبب في مشقة للآخرين؟ هل حياتي سبب سعادة أم ألم؟

نقرأ في إشعياء ٥٢ : ٧ **"مَا أَجْمَلَ عَلَى الْجِبَالِ قَدَمَيِ الْمُبَشِّرِ الْمُخْبِرِ بِالسَّلاَمِ الْمُبَشِّرِ بِالْخَيْرِ ..."**

ولعله من المفيد أن نطرح على أنفسنا بعض الأسئلة مثل:

"هل أترك ورائي سلاماً أم اضطراباً؟"

"هل أترك ورائي مغفرةً أم مرارة؟"

"هل أترك ورائي رضاً أم نزاعاً؟"

"هل أترك ورائي فرحاً أم صراعاً؟"

"هل أترك ورائي محبةً أم بغضة؟"

ومن المؤسف أن بعض الناس يتركون وراءهم هذه الفوضى المؤلمة حينما يرحلون. وكإبن حقيقي لله، الشخص الذي تحت رعاية الراعي، لا ينبغي أن يعتريه أي إحساس بالخوف أو العار للعودة إلى حيث كان يعيش قبلاً. لماذا؟ لأنه ترك هنا ميراثاً من الرفعة والتحفيز والإلهام للآخرين.

ففي أفريقيا، حيث قضيت أعواماً كثيرة، ترك ديفيد ليفنجستون David Livingstone أروع التأثيرات التي يمكن للشخص أن يتركها. فأينما كانت تقوده خطواته، سواء عبر الغابات، أو السهول المترامية، فإنه كان يترك وراءه تأثير محبته، حتى أن المستوطنين الذين كانوا يجهلون لغته، ظلوا يتذكّرون لسنوات عديدة عذوبته ورقته كطبيب، لقد كانت خطوات الخير والرحمة تتبعه طوال أيام حياته...

وأيضاً تترسّخ في عقلي تلك القصص التي عرفتها عن يسوع المسيح كإنسان عاش بيننا، كانت حياته مجملة في هذه العبارة البسيطة، المركّزة والراسخة بعمق "كان يجول يصنع خيراً" ولكنني كنت أيضاً منبهراً بحقيقة أن كل أعماله كانت ممتزجة بالرحمة، فبينما كان معظم الناس الآخرين يتسمون بالوقاحة، والقسوة، وكانوا عدوانيين مع بعضهم بعضاً، كان تعاطفه ورقته دائماً واضحين. حتى أن أبشع الخطاة إثماً، وجدوا لديه المغفرة في حين أنهم لم يجدوا من الآخرين سوى الإدانة والتجريح والانتقاد اللاذع.

مرة أخرى، يجب أن أسأل نفسي، هل هذا هو موقفي تجاه الآخرين؟ هل أجلس متعالياً على عرش كبريائي، مزدرياً بالآخرين، أم أنني أتنازل، وأقدّم نفسي، وأعرض عليهم المساعدة للخروج من ورطتهم، وهناك أقدّم لهم قدراً من الخير والرحمة الممنوحين لي من سيدي؟

هل أرى الخطاة من منظور عطف وحنان المسيح أم أنظر إليهم بعين الانتقاد والتجريح؟ هل أتطلّع للبحث عن أخطاء وضعفات الآخرين أم ألتمس لهم المغفرة كما عفا الرب عن سقطاتي؟

إن المقياس العملي الحقيقي الوحيد لتقديري لما منحني إياه من خير ورحمة هو أن أظهر الخير والرحمة تجاه الآخرين.

وإذا لم أستطع أن أغفر، وأمكّن المحبة للساقطين، فإما إنني لم أدرك إلا القليل فقط، أو أنني لم أدرك شيئاً على الإطلاق، عن إحساس المسيح العملي للخير والرحمة في حياتي.

إن نقصان المحبة من المؤمنين، هو الذي يجعل من الكنيسة اليوم مؤسسة فاترة لا طعم لها، فالناس يأتون طلباً للمحبة، ولكنهم يُحبَطون بسبب فتورنا.

ولكن أولئك الذين أدركوا، أو استقوا الخير والرحمة من الله مباشرة في حياتهم، سيكونون حارين ومتعاطفين بالخير والرحمة تجاه الآخرين. وبقدر ما هو مفيد لحياتهم، فإنه أيضاً بركة نبارك بها الرب.

نعم بركة للرب! لأنه يسر بنا

إن معظمنا يفكرون أن الله هو الذي يمنحنا بركة. لكن الحياة المسيحية هي طريق مزدوج الاتجاهين، ولا شيء يدخل السرور على قلبي أكثر من رؤيتي لقطيعي وهو ينتعش ويزدهر، وأيضا أشعر بالبهجة بلا حدود وأنا أحصل على مكافأة للعناية التي منحتها له. لقد كان شيئاً رائعاً أن أرى القطيع وهو يستلقي في

استرخاء، وأن أرى نضرة المزرعة.

إن معظمنا ينسون أن راعينا ينتظر أن نكون راضين، وقيل لنا إنه تطلّع إلى الألم الذي كابدته نفسه وكان راضياً.

"...مِنْ أَجْلِ السُّرُورِ الْمَوْضُوعِ أَمَامَهُ احْتَمَلَ الصَّلِيبَ مُسْتَهِيناً بِالْخِزْيِ،..." (عبرانيين ١٢: ٢)

هذه هي الفائدة التي يمكننا أن نحققها له.

إنه يتطلّع إلى حياتي في رقة لأنه يحبني بشدة ويرى السنوات الطويلة التي كان الخير والرحمة يتبعانني فيها باستمرار، وينتظر أن يرى قدراً من الخير والرحمة لا يوجه فقط إلى الآخرين، ولكن يوجه أيضا له بابتهاج.

إنه يتطلّع للمحبة، محبتي.

إنني أحبه لأنه أحبني أولاً.

وبهذا يكون راضياً ومبتهجاً بي.

الفصل الثاني عشر

"وَأَسْكُنُ فِي بَيْتِ الرَّبِّ إِلَى مَدَى الأَيَّامِ"

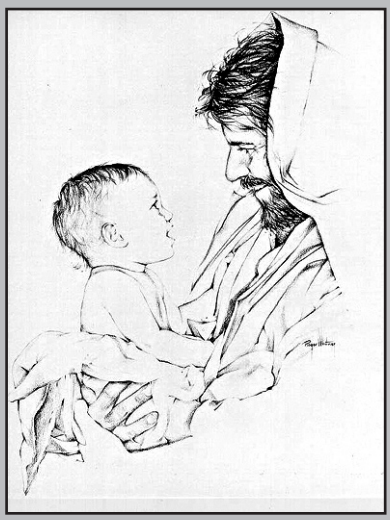

الفصل الثاني عشر

"وَأَسْكُنُ فِي بَيْتِ الرَّبِّ إِلَى مَدَى الأَيَّامِ"

لقد بدأ المزمور ببهجة الافتخار "الرب راعيّ"

والآن يُختتم بموقف إيجابي لتأكيد هذه البهجة **"وَأَسْكُنُ فِي بَيْتِ الرَّبِّ إِلَى مَدَى الأَيَّام"** وهنا يكاد الخروف ينطق برضا، عرفاناً بما ناله في حياته، وهو قانع تماماً بالعناية التي يتلقاها في المنـزل، مع راعٍ لا يترك له أدنى رغبة للبحث عن بديل.

وكأنه يقول ببساطة وبصورة مباشرة "ليس هناك شيء يجعلني أترك هذه الرفاهية فهي رائعة!"

ومن جانب آخر فقد تطورت لدى الراعي عاطفة رائعة، وتزايد الإخلاص لقطيعه فهو لن يفكّر على الإطلاق في الانفصال عن قطيعه. إن سعادته ومكسبه هما نتيجة لرؤيته لأغنامه وهي تتمتع بالصحة وتشعر بالقناعة وتتميز بالإنتاجية، لقد أصبحت الروابط الآن قوية جداً بينهما بكل ما تعنيه هذه الكلمة.

كلمة "بيت" مُستخدمة هنا في المزمور بمعنى أعمق مما يعتقد معظم الناس، فعادة ما نعني ببيت الرب، القدس، أو الكنيسة، أو موضع اجتماع شعب الرب. وربما كان هذا المعنى يدور في ذهن داود. وبالطبع، نحن نشعر بالسعادة عندما نفكر بأن الشخص سيبتهج دائماً لوجوده في بيت الرب.

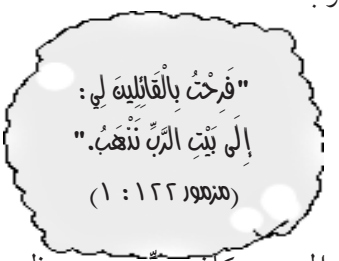

"فَرِحْتُ بِالْقَائِلِينَ لِي: إِلَى بَيْتِ الرَّبِّ نَذْهَبُ." (مزمور ١٢٢: ١)

لكن يجب أن نضع في أذهاننا دائماً، أن المرنم في هذا المزمور، كان يعبّر عن منظور الخروف، فهو يسرد أنشطة القطيع خلال الفترات المختلفة من السنة. لقد اصطحبنا معه من المراعي الخضراء، والمياه الساكنة في المزرعة الأم، نحو أعالي الجبال على مرتفعات مناطق الرعي الصيفية. ثم حلّ موسم السيول والأمطار، والعواصف الثلجية، فقاد قطيعه إلى سفوح التلال، رجوعاً إلى المزرعة الأم، للاستقرار فيها خلال فترة الشتاء الهادىء... ومن هنا يشعر القطيع بأنه البيت الآتي... إنها عودة إلى الحقول، والحظائر، والأجران، والمخابئ الموجودة في بيت المالك... وخلال فصول العام بكل ما فيها من مخاطر واضطرابات، فإن انتباه الراعي، وعنايته، وكفاءة إدارته هي التي أشاعت الرضا لدى القطيع.

إن ما يشار إليه في الواقع، بالبيت هو العائلة، أو تجهيزات المنـزل، أو قطيع الراعي الصالح. فالخراف تكون على درجة عالية جداً من الرضا، مع القطيع الذي تنتمي إليه، والمالك، وخاصة هذا الراعي الذي لا ترغب في استبداله مهما حدث.

فهي كما لو كانت قد عادت إلى البيت مرة أخرى لتمكث فيه بصفة نهائية، وهي موجودة الآن خلف السياج تشعر بالفخر أمام نظيراتها من الخراف الأخرى الأقل حظاً والموجودة على الجانب الآخر، إنها تتفاخر بالعام العجيب الذي تمتعت فيه، وتعلن عن ثقتها الكاملة في راعيها.

ويجب أن يكون حالنا كمؤمنين هكذا، بل وأكثر من ذلك. يجب أن نفتخر بالرب يسوع، ولماذا لا تكون لدينا حرية التفاخر أمام الآخرين عن مدى صلاح راعينا؟ فكم تكون سعادتنا ونحن نلتفت للوراء، ونسترجع ذكريات كل السبل التي جعلنا نشعر فيها بالسعادة والرفاهية. يجب أن نبتهج ونحن نصف بالتفصيل، الخبرات الصعبة التي خلصنا منها وباركنا من خلالها. يجب أن نكون شغوفين ونسرع في إعلان ثقتنا في المسيح. يجب أن نتحلّى بالشجاعة التي بها نعلن بلا خوف عن سعادتنا بأننا خاصته. يجب أن نُظهر الامتياز الفريد بأن نكون أعضاء "أهل بيته" من قطيعه.

إنني لا أستطيع إطلاقاً، أن أتأمل في هذه الآية الأخيرة من

المزمور، دون أن تنهمر الدموع من عيني وأنا أتذكّر منظر أول مزرعة للأغنام امتلكتها.

فمع حلول فصل الشتاء، بكل أمطاره الباردة، ورياحه العاتية، كانت تقف أغنام جاري المريضة، محتشدة أمام السياج، توجّه مؤخرتها نحو العاصفة، تتأمل الحقول الخصبة التي يرعى فيها قطيعي. إن تلك الحيوانات المسكينة والمهملة التي يمتلكها مزارع لا قلب له، لم تعرف سوى المعاناة طوال العام. فقد كانت تتضور جوعاً، وكانت نحيفة جداً، وكانت الأمراض متفشية فيها، وكانت تتعذب من الذباب، وتتعرض لهجوم الحيوانات المفترسة، وكان بعضها ضعيفاً حتى أن أرجلها كانت بالكاد تحملها.

لقد كانت تترصد ببصيص من الأمل، وربما بقليل من الحظ، أن تتمكن من الإفلات من خلف السياج، فكانت تنبش بحوافرها لكي تجد منفذاً تهرب منه. وكان هذا يحدث من وقت لآخر، وبخاصة في أيام عيد الميلاد حيث يكون المد على أشده، وتتراجع الأمواج، وتصبح الفرصة سانحة لكي تنطلق من أسفل الفراغ الذي خلفه المد، وتتسلل عند نهاية السياج، وتبدأ في التهام العشب الأخضر الغزير حتى التخمة.

وأتذكر بوضوح قدوم ثلاث نعاج يمتلكها جاري، وهي منطرحة بلا عون في يوم ممطر، وكانت هذه النعاج تبدو عجوزة، ولا تستطيع السير على أرجلها من الوهن. لقد حملتها على عربة

يد، وأرجعتها إلى مالكها القاسي. فما كان منه إلا أنه ببساطة أمسك سكيناً وقام بذبحها. لم يكن أمرها يهمه.

يالها من صورة للشيطان الذي يمتلك الكثيرين.

ولكن هناك صورة أخرى قفزت إلى ذهني وهي تلك التي قالها يسوع عن نفسه بأنه هو الباب والمدخل الذي تدخل منه الخراف إلى حظيرته.

فتلك الخراف المسكينة لم تأتِ إلى مزرعتي من البوابة الصحيحة، فأنا لم أدعُها للدخول. لم تكن في الواقع ملكاً لي على الإطلاق، وهي لم تأتِ لتكون تحت توجيهي وتصرّفي، ولو فعلت ذلك، لما كان هذا حالها. ولو كانت منذ البداية تحت سيطرتي، لكانت قد تلقت رعاية فائقة. كنت سأضعها على نظام غذائي يبدأ بغذاء جاف، وبكميات محدودة ومتوازنة وبالتدريج سيُسمح لها بتناول الغذاء الأخضر.

ومثل هذه النعاج، كمثل البعيدين عن الرب يسوع. لقد كان عالمهم القديم مزرعة من البؤس والشقاء التام تحت سيطرة مالك لا قلب له وهو إبليس الذي لا يكترث إطلاقاً بأرواح البشر أو براحتهم. وتحت طغيانه، هناك الملايين جوعى، وقلوبهم متذمرة وهم يتطلعون أن يدخلوا بيت الرب، يرجون عنايته واهتمامه.

ومع ذلك، فهناك طريق واحد فقط يؤدي إلى تلك الحظيرة،

وهذا الطريق يكون من خلال المالك الرب يسوع نفسه الراعي الصالح. لقد قال بوضوح **"أَنَا هُوَ الْبَابُ. إِنْ دَخَلَ بِي أَحَدٌ فَيَخْلُصُ وَيَدْخُلُ وَيَخْرُجُ وَيَجِدُ مَرْعًى."** **(يوحنا ١٠: ٩)**

إنني أقف كل يوم تقريباً وأرثي للأشخاص الذين يعانون "على الجانب الآخر من السياج" فما هو تأثيري عليهم؟ فهل حياتي هادئة، راضيه، مضيئة بهذا القدر، لأنني أسلك وأتكلّم وأحيا مع الرب حتى أنهم يحسدونني على ذلك؟ هل يرون في شخصي الصفات الرائعة لكوني تحت تصرف المسيح؟ هل يرون شيئاً من صفات المسيح منعكسة على تعاملاتي وعلى شخصيتي؟ هل حياتي وأحاديثي تقودهم إليه، وبالتالي إلى الحياة الأبدية؟

فلو كان الأمر كذلك، فإنني أتوقع أن بعضاً منهم سيتطلّع إلى أن يسكن في بيت الرب إلى مدى الأيام. ولا يوجد شيء يحول دون حدوث هذا، إذا جاءوا واضعين أنفسهم تحت ملكيته بطريقة صحيحة.

هناك إحساس رائع وأخير، يشير إلى أن المرنم كان يتكلّم عن نفسه باعتباره "هذا الخروف". وقد ورد في العهد القديم ما يتضمّن معنى هذه العبارة "سأسكن في حضرة الرب إلى مدى الأيام".

وأنا مقتنع تماماً، أن أعمق عاطفة موجودة لدى داود في ختام

هذا المزمور، هي أن يمدح العناية الإلهية.

ولا يكون لدينا فقط الفكر عن راع حاضر في الموقع على الدوام، ولكن لدينا أيضاً إدراك وشغفً الخروف بأن يكون في مشهد كامل أمام راعيه في جميع الأحوال.

إن هذا الموضوع كان محور دراستنا. إنه يوضح يقظة وإدراك واجتهاد السيد الذي لا يكل أبداً، وهو وحده الذي يخص الخراف بعناية ممتازة. ومن منظور الخروف، فإنه يعلم أن الراعي حاضر على الدوام، وهذا الإدراك الراسخ بحضوره عن قرب، يقضي تلقائياً على معظم الصعاب والأخطار، كما أنه في الوقت نفسه يملأ القلب بإحساس كامل من السكينة والأمان.

إن حضور مالك الخراف يضمن عدم وجود قصور، فالمراعي الخضراء الغزيرة ستكون وافرة، والمياه الساكنة النقية غزيرة، وهناك ممرات جديدة لحقول مزدهرة، وأيضا رعي آمن على السهول الصيفية المرتفعة، سيتم التحرر من كل خوف، وسيتم توفير مضادات لمكافحة الذباب والأمراض والطفيليات.

وهذا ما نجده على وجه التحديد في حياتنا المسيحية. فعندما يكتمل القول والفعل في مسيرة المؤمن الناجحة، حينئذ يمكن القول "إنني أحيا دائماً في محضر الرب." فعندما أتجاوب مع الرب يسوع الموجود فيّ وأتحرك بانسجام مع إرادته ، فإنني سأكتشف

أن الحياة قد ارتقت إلى حد الرضا، وأصبحت جديرة بالاهتمام، ويحل فيها الهدوء والسكينة، ويتحقق كل هذا حينما أسمح لروحه المعزّي أن يسيطر، ويدير ويُوجّه قراراتي اليومية. إن حضوره يحيط بحياتي. وأكون واعياً لكل موقف أواجهه. فهو يلازمني بعنايته واهتمامه لأنني أنتمي إليه، وسيستمر هذا إلى انقضاء الدهر. يالها من ثقة!

اسكن في بيت (محضر) الرب إلى مدى الأيام.

فليتبارك اسمه العظيم.